

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

297.48

I 132kA

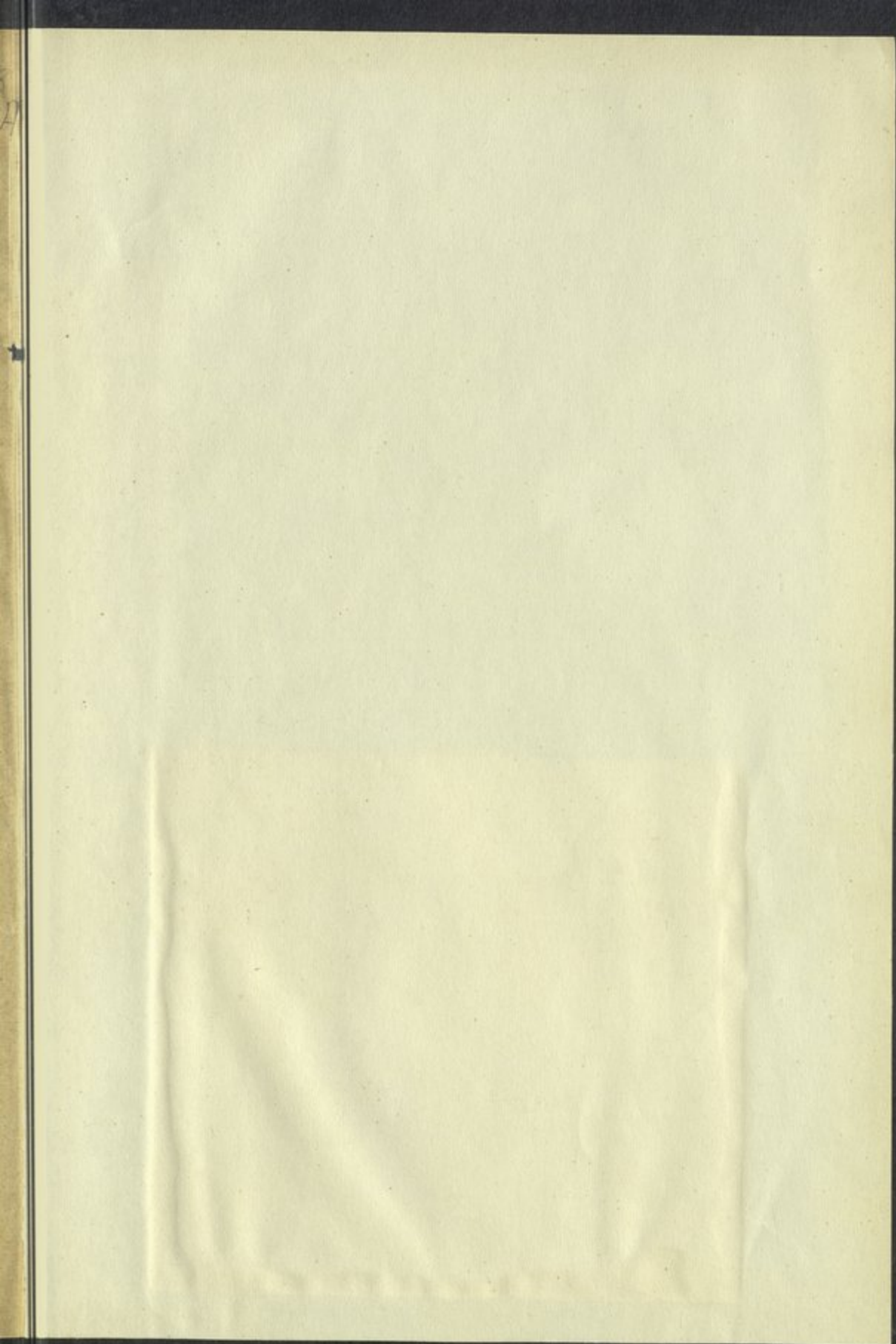
~~1 - JUN 69~~

J. Lib.

~~1 OCT 1973~~

Jafet, Library

03 APR 1995



297.48
I/32 k A
C.I.

قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ

فِي التَّوَسُّلِ وَالْوَسِيلَةِ

لِلإمام شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية
رحمه الله تعالى

علق عليه وصحح أصوله الأستاذ

طه محمد الزبي
من علماء الأزهر

الطبعة الأولى سنة ١٣٧٣ هـ

ملتزم الطبع والنشر

محيي الدين محمد شاهين

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة المنيرية بالأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن
اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فهذه الرسالة «قاعدة جلية في التوسل والوسيلة» ، للإمام أحمد بن تيمية
من أنفس الرسائل وأقيمها ، وأنفعها للمسلمين ديناً ودنياً لأنها تصحح لهم ناحية هامة
من نواحي دينهم ، هي ناحية التوسل التي اضطرب فيها الناس ، وذهبوا في جوازها
وعنده مذاهب شتى ، بعضهم يحلل وبعضهم يحرم ، ومن المحللين قوم غسّلوا في
التوسل حتى توسّلوا ببعض المخلوقات التي لم تبلغ من المكانة ما يؤهلها لرفعة الشأن ،
بل توسّلوا بالقبور والأحجار نفسها ظناً منهم أن ما جاور العظيم فهو عظيم ، وأن
إكرام الله لساكن القبر يتعدى إلى القبر نفسه حتى يصح أن يكون وسيلة لله ، ومن
المحرّمين قوم جهلوا معنى الوسيلة فخرّسوا أن يطلب المسلم من أخيه الدعاء له ، ظناً
منهم أن دعوة المؤمن لأخيه من التوسل المحرم ، وهؤلاء وأولئك ليسوا على الحق
وإنما الحق وسط بين غلو المحرّمين والمحلّلين ، وقد بينه العلامة ابن تيمية أوفى بيان ،
وأوضحه أيما إيضاح ، فحشد جميع الآيات التي وردت في الوسيلة في القرآن الكريم ،
وجميع الأحاديث التي وردت فيها أيضاً صحيحها وضعيفها حتى ما كان منها موضوعاً ،
وبين سبب الضعف وأقام الدليل على الوضع ، حتى جعل قارئه يعجب لهذه القدرة
الفائقة على استيعاب آيات القرآن على اختلاف سورها ، وتشئت مواضعها ، وحفظ
الأحاديث الواردة في هذا الشأن جميعها ومعرفة درجتها من الصحة والحسن والوضع
وغير ذلك ، ولا غرابة فالإمام أحمد بن تيمية كان نادرة زمانه ذكاً وألمعية وحسن
استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ، وقوة حجة في الاستدلال لما يرى أنه الحق
وأشهد لقد أجهدتني بحثاً عن مواضع الآيات والأحاديث وشرح غريبها ، مما جعلني
أحله من نفسي المنزلة التي لا يسمو إليها غيره من علماء عصره ، وقد استطرّد أثناء

ذلك إلى موضوعات إسلامية مهمة وفأها حقها من البحث ، وأزال شكوك الناس فيها ، وحيرتهم بين آراء العلماء المختلفة ، فتعرض لطرف من أفعال الجن وتشكلم واختلاطهم بالناس يغوونهم أو يكلمونهم بلسان الأموات ، أو الأحياء ، ويضرون أعداء من يصادقونه من الإنس ويسرقون له الأموال إلى غير ذلك من أعمال الاستمتاع التي ذكرها الله تعالى بقوله (وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) وبين حكم إهداء ثواب الأعمال إلى الرسول ﷺ وإلى الأموات ، ولا سيما الوالدين ، وتعرض لحكم القسم الصحيح وغيره ، وحكم قسم الله بالخلوقات وقسم الناس بها ، وبين الفرق بين سؤال الله والإقسام عليه ، وسؤال الخلق والإقسام عليهم ، وأول الشرك وأنواعه وبين اجتهاد الصحابة وما كان منه مخالفا للسنة أو موافقا لها ، وتكلم عن الأحاديث الصحيحة والموضوعة في مسند أحمد والحاكم وغيرهما ، وبين أن الولاية إنما تكون للمتقين الصالحين لا للعاصين الضالين إلى غير ذلك من الموضوعات الشبقة التي يتفتح لها الذهن ، ويأس بها طالب الحق ، غير أن في الرسالة كثيرا من التصحيف والتحريف ، لعله نشأ من الكاتب الذي نقلها من السكواكب الدراري ، وكان العلامة السيد رشيد رضا قد علق على هذه الرسالة في طبعها الثانية تعليقات مختصرة وبين بعض التصحيف والنقص في بعض المواضع ولكنه ترك كثيرا منها لم يتعرض له ، فصححته وشرحت كثيرا من الكلمات اللغوية الغريبة التي وردت في كلام المؤلف ، وأشارت إلى تعليقات السيد رشيد رضا في مواضعها وما كان منها ناقصا أكملته ، وضبطت الكلمات التي تحتاج إلى ضبط . حتى أصبحت الرسالة قريبة إلى الأذهان ، يستفيد منها الخاص والعام ، ولم أترك من الكلمات إلا ما لم أجده في كتب اللغة مع التنبيه إلى ذلك ، ولا أستطيع جحد فضل السيد رشيد رضا فهو في ذلك الإمام وأنا المأموم ، سار فقيت على آثاره فهو السابق إلى الفضل الجدير بالشكر ، وقد رمزت لتعليقه الخاص بحرف (ر) ولتعليقه الذي زدت عليه بالحرف (هـ) ، وإلى أسأل الله تعالى أن ينفع بها الإسلام والمسلمين وأن يجزيني بجهدي فيها ، وأن يجعلني وقارئها من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يجزي مؤلفها خير الجزاء بما أظهر للناس من علم ، وبما هداهم عليه من خير إنه سميع الدعاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والبرهان على الدين كله وكفى بالله شهيداً . أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة ، وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً . فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً . ففرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار ، وبين أوليائه وأعدائه ، فالخلال ما حلله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله . وقد أرسله الله إلى الثقلين الجن والإنس ، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه في باطنه وظاهره . والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله وهو عبادة الله وهو طاعة الله وهو طريق أولياء الله وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في قوله تعالى :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ^(١)) فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما تكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد واتباعه .

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد في كل حال باطناً وظاهراً في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته في مشهده ومغيبه ، لا يسقط التوسل بالإيمان

(١) الآية من سورة المائدة والوسيلة هي ما يقرب إلى الله ويوصل العبد إلى رضاه وقد بين الإمام ابن تيمية أن الوسيلة إلى الله إنما تكون بالإيمان بالنبي ﷺ واتباعه وأن الوسيلة بهذا المعنى فرض على كل مسلم في كل حال في حياة الرسول وبعد موته ولا تسقط عن أحد من الناس في أية حال ولا عذر في تركها بعد قيام الحجة عليها .

به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ولا بعذر من الأعذار . ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالايان به وبطاعته . وهو ﷺ شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلام جاها عند الله . وقد قال تعالى عن موسى (وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَرَجِيهاً^(١)) وقال عن المسيح (وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢)) ومحمد ﷺ أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين ، لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفيع له الرسول ودعاه ، فمن دعا له الرسول وشفيع له توسل الى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان أصحابه يتوسلون الى الله بدعائه وشفاعته ، وكما يتوسل الناس يوم القيامة الى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى^(٣) . والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الايمان به . وأما بدون الايمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعته الشافعين في الآخرة ، ولهذا نهى عن الاستغفار لعنه وأبيه وغيرها من الكفار ، ونهى عن الاستغفار للمنافقين وقيل له (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ^(٤)) ولكن الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الايمان في الايمان قال تعالى (لِنَسُوا زِيَادَةَ فِي الْكُفْرِ^(٥)) ، فإذا

(١) الآية من سورة الأحزاب وتامها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً) وإيذاء قوم موسى له أنهم قالوا ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آذر أي كبير الخصية ، فذهب مرة ليغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فسار موسى حتى أخذ ثوبه وبنو إسرائيل ينظرون إليه فلم يجدوا به بأساً فكانت تلك براءة الله له والوجيه ذوالجاء والمسكنة العظيمة عند الله (٢) الآية من سورة آل عمران وتامها (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) أي ذو مكانة عند الله في الدنيا والآخرة (٣) أي يتوسلون إلى الله بدعاء الرسول ﷺ لهم في الدنيا وبرجاء شفاعته في الآخرة (٤) الآية من سورة المنافقون وقد بين الله تعالى أن استغفار الرسول ﷺ للمنافقين لا ينفعهم لأنهم لم يؤمنوا به ولم يتبعوه . (٥) الآية من سورة براءة ، والنسيء تأخير حرمة القتال في الأشهر الحرم إلى أشهر

كان في الكفار من خف، كفره بسبب نصرته ومعونته فإنه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه لا في إسقاط العذاب بالكلية، كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت يا رسول الله فهل نفعت أباطال بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال: نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار^(١)، وفي لفظ أن أباطال كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح، وفيه عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منهما دماغه، وقال: إن أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو متعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه، وكذلك ينفع دعاؤه لهم بأن لا يعجل عليهم العذاب في الدنيا كما كان ﷺ يحكي (أن) نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(٢)، وروى أنه دعا بذلك أن^(٣) اغفر لهم

غيرها، وكان الكفار يفعلون ذلك حسب أهوائهم فتارة يحلون القتال في الأشهر الحرم وتارة يحرمونه إذا رآوا في ذلك مصلحة لهم وقدين الله تعالى أن عملهم هذا زيادة في الكفر قال تعالى (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) (١) الضحضاح الماء القليل العمق. يريد الرسول ﷺ أن أباطال في عذاب قليل كن يوجد في ماء قليل كما سيأتي بعد ذلك أن النار تغمر رجليه فقط إلى الكعبين والدرك الأسفل قعر جهنم ويكون العذاب فيها عاما شاملا تغمر النار الكافر وتحوطه من جميع جهاته كما قال تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون)

(٢) دعا النبي ﷺ بهذا الدعاء يوم واحد، لما شج المشركون وجهه وكسروا رابعيته وهي إحدى أسنانه الإمامية ودخلت إحدى حلقات المغفر في وجهه والمغفر هو الترس التي يدافع بها عن نفسه في الحرب. ومعنى طلب الرسول ﷺ المغفرة لقومه بعد ما فعلوا به أن يهديهم الله إلى الإيمان وقد آمن أكثرهم بعد ذلك. ولما ذهب الرسول ﷺ إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإيمان فأغلظوا له القول وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرجونه بالحجارة حتى دميت قدماه. أنزل الله عليه جبريل فقال له لو شئت أطبقت عليهم الأخشبين أي الجبلين فقال ما معناه (أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا) (٣) لعلمها (أي، التفسيرية ولعل في هذا السياق تحريفا من

فلا تعجل عليهم العذاب في الدنيا . قال تعالى (وَلَوْ يُوَاحِذُ اللَّهُ النَّاسُ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَسْكَنَ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ^(١)) وأيضا فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه كما دعا لأم أبي هريرة حتى هداها الله ، وكما دعا لدوس فقال : اللهم اهد دوسا ^(٢) وامت بهم ، فهداهم الله ، وكما روى أبو داود انه استسقى ^(٣) لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم فاستسقى لهم ، وكان ذلك إحساناً منه اليهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك .

وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهاً عند الله لا جاء لخلق عند الله أعظم من جاها ولا شفاعاة أعظم من شفاعته ، لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم ، فان الإيمان بهم وطاعتهم توجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقاً ^(٤) وعاماً ، فكل من مات مؤمناً بالله ورسوله مطيعاً لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعاً ، ومن مات كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً .

وأما الشفاعاة والدعاء فانتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع ، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً ، فلا شفيع أعظم من محمد ﷺ ثم الخليل إبراهيم وقد دعا الخليل إبراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

الناسخ وفي البخارى وغيره أن النبي ﷺ دعا بهذا الدعاء يوم أحد وقد شجّه المشركون وكسروا رباعيته . وفسر العلماء دعاءه بالمغفرة لهم بنحو من هذه العبارة قالوا لأنهم أرادوا بالمغفرة ما يتعلق بالآخرة لأنهم . وقد يقال أن الدعاء استجيب في المجموع (ر) .

(١) الآية آخر سورة فاطر ، وتامها (إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعَمَلِهِمْ بَصِيرًا) .

(٢) اسم قبيلة من قبائل العرب ومعنى انت بهم أحضرهم إلى لبؤمنوا وهبتدوا .

(٣) أى طلب السقيا وهى نزول المطر من السماء عند القحط وعدم الماء .

(٤) أى النجاة من جميع العذاب لامن بعضه كما ينجو بعض المشركين من بعضه فقط .

يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ^(١)) وقد كان ﷺ أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداءً بإبراهيم
وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه^(٢) فأنزل الله تعالى (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ^(٣)) ثم ذكر الله عذر إبراهيم فقال (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ
لِأَيِّهِ إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ
حَلِيمٌ) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ^(٤)) وثبت
في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم
القيامة وعلى وجه آزر قتره^(٥) وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟
فيقول له أبوه : فاليوم لأعصيك . فيقول إبراهيم : يارب أنت وعدتني أن لا تخزيني
يوم يبعثون ، وأى خزي أخزى من أبي الأبعد^(٦) فيقول الله عز وجل : اني حرمت
الجنة على الكافرين ، ثم يقال : انظر ماتحت رجلك فينظر فإذا هو بذئخ^(٧) متلطيخ
فيؤخذ بقواتمه فيلقى في النار ، فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار إبراهيم مع عظم
جاهه وقدره ، وقد قال تعالى للؤمنين (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ
مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ
لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ

(١) الآية من سورة إبراهيم ، (٢) أى أراد بعض المسلمين أن يستغفروا لبعض
أقاربهم حيث أراد بعضهم الاستغفار لأبويه الذين ماتا مشركين (٣) الآية من سورة براءة ،
(٤) الآية أيضا من سورة براءة ، والموعدة التي وعدها إبراهيم أباه هي أن يستغفر له رجاء
أن يؤمن وقد ذكر الله تعالى ذلك في سورة مريم بقوله (قال سلام عليك ما استغفر لك ربى
لأنه كان في حقا) (٥) أى عبوس وتجهم (٦) أى الذى هو أبعد من رحمتك . (٧) الذئخ
ذكر الضباع - تشبيهه لحال أبي إبراهيم في قذارتها ومهانتها بذكر الضباع المتلطيخ والضبع حيوان
قذر بطبعه فبالك به إذا تلطيخ . وفي القاموس الذئخ بكسر الهمزة ذكر الضباع الكثير الشعر .

المصير ربنا لا تجمعنا فتنه للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم^(١)
فقد امر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بآبراهيم ومن اتبعه إلا في قول إبراهيم لا ييه
لاستغفرن لك ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد ﷺ في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال
« استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ، وفي
رواية أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال « استأذنت ربي أن
أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها
تذكر الموت » وثبت عن أنس في الصحيح أن رجلا قال يا رسول الله : أين أبي ؟
قال (في النار) فلما أقفنا دعاه فقال (ان أبي وأباك في النار) وثبت أيضا في الصحيح
عن أبي هريرة لما أنزلت هذه الآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ^(٢)) دعا رسول الله
ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص^(٣) فقال (يا بني كعب بن لؤي ! أنقذوا أنفسكم
من النار ، يا بني مرة ابن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس ! أنقذوا
أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف ! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب !
أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة ! أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لكم من الله
شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبيلها^(٤)) وفي رواية عنه (يا معشر قريش اشترُوا
أنفسكم من الله فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله
شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية - عمة رسول الله -
لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت رسول الله - سليلي من مالي ما شئت لا أغني
عنك من الله شيئاً) وعن عائشة لما نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قام رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال (يا فاطمة بنت محمد ! يا صفية بنت عبد المطلب ، لا أملك لكم
من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم) وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ

(١) الآية من سورة « الممتحنة » والآسوة القدوة والاتباع .

(٢) الآية من سورة « الشعراء » (٣) أي أنذرهم جميعاً ثم خص البطون والأفراد

فالعوم في قوله يا معشر قريش والخصوص في قوله يا بني عبد مناف يا عباس ، يا صفية الخ .

(٤) الرحم معناها صلة القرابة بسبب النسب والمصاهرة ومعنى أنه ﷺ سبيلها يبلاها

خطيبا ذات يوم فذكر الغلول (١) فغضمه وعظم أمره ثم قال (لا ألفين أحدكم يحيى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء (٢) يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يحيى يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يحيى يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء (٣) فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يحيى يوم القيامة على رقبته رفاع (٤) تخفق فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يحيى يوم القيامة على رقبته صامت (٥) فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، أخرجاه في الصحيحين وزاد مسلم ، لا ألفين أحدكم يحيى يوم القيامة على رقبته نفس لها صباح فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك ، وفي البخارى عنه أن النبي ﷺ قال ، ولا يأتى أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها ثغاء فيقول يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولا يأتى أحدكم ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول يا محمد ، فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، وقوله هنا ﷺ لا أملك لك من الله شيئا كقول ابراهيم لآبيه (لا ستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) . وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهى نافعة في الدنيا (٦) والدين باتفاق المسلمين ، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين ، وقد قيل ان بعض أهل البدعة ينكروها . وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة (٧)

انه سيصل رحمه بالنصيحة لذوى قرباه ، ويقال لمن وصل رحمه ، بلها .

(١) الغلول هنا الخيانة بإخفاء حق الفقراء من الزكاة ، وبعض الأحاديث يستدل منها على أن المراد بالغلول مطلق الخيانة بالسرقة وإخفاء حق الفقراء وقتل النفس وغير ذلك .

(٢) هو صوت الابل (٣) هو صوت الشاة (٤) أى أبواب تضطرب فى الهواء يحملها

لأنه لم يؤد زكاتها (٥) الصامت الذهب والفضة (٦) ثبت نفع دعائه فى الدنيا بما وهب الله

أنس بن مالك رضى الله عنه من المال الوفير والولد الكثير وطول العمر بعد دعائه ﷺ له

وبرد بصر الأعمى عليه بعد دعائه له ﷺ كما سيأتى ، وفى الدين بهداية بعض القبائل والأفراد

كعمر بن الخطاب وقد طلب الرسول ﷺ أن يعز الإسلام به أو بأبى جهل فأجاب الله دعاءه

فى عمر بن الخطاب (٧) هم أئمة المذاهب الأربعة الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأحمد

وغيرهم ، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية وقال هؤلاء :
من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعه ولا غيرها ، وعند هؤلاء ما ثم^(١) إلا من يدخل
الجنة فلا يدخل النار ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ، ولا يجتمع عندهم في الشخص
الواحد ثواب وعقاب . وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالاربعة
وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن الله يخرج من
النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم يخرجهم بشفاعته محمد ﷺ ويخرج
آخرين بشفاعته غيره ويخرج قوما بلا شفاعته .

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى (وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ
نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ^(٢)) وبقوله (وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ) وبقوله (مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ)
وبقوله (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ^(٣)) وبقوله (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ
الشَّافِعِينَ^(٤))

وجواب أهل السنة أن هذا لعله يراد به شيان : أحدهما أنها لا تنفع المشركين
كما قال تعالى في نعتهم (مَا سَلَكَكُمْ^(٥) فِي سَقَرِهِ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) ولم

(١) أى ما هناك يعنى فى الآخرة إلا صنفان أهل الجنة فقط وأهل النار فقط
(٢) الآية من سورة البقرة ، ربع (أتأمرون الناس بالبر) والآيتان الثانية
والثالثة من سورة البقرة ، أيضا أولاها ربع (ما ننسج) وتماهما (واتقوا يوما لا تجزى
نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعته ولا هم ينصرون) وثانيتهما ربع
، تلك الرسل ، وتماهما (بأيتها الذين آمنوا أنفقوا بما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا يبيع فيه
ولا خلة ولا شفاعته) والعدل الفداء . والخلة الصداقة أى لا تنفع فيه الصداقة بل يفر المرء
من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته التى تغنيه ومن فى الأرض جميعا ، ولا ينفع فيه الفداء فلو
أن للذين كفروا ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفقدوا به ما تقبل منهم .

(٣) الآية من سورة المؤمن ، والحميم الصديق (٤) الآية من سورة المائدة .

(٥) هذه الآيات هى السابقة على قوله تعالى (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) والمراد بالشافعين

نُكَ نُطْعُمُ الْمُسْكِينِ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَوْمِ الدِّينِ ۝
 حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ۝ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين
 لأنهم كانوا كفاراً . والثاني انه يراد بذلك نفي الشفاعة التي أثبتتها أهل الشرك ومن
 شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون ان للخلق عند الله
 من القدر أن يشفعوا عنده بغير اذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع
 اليه شفاعة شافع لحاجته اليه رغبة ورهبة كما يعامل المخلوق بالمعاوضة . فالمشركون
 كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون
 تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم
 وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك
 من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير اذن الملوك وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما
 لا يختاره فيحتاج الى اجابة شفاعته رغبة ورهبة . فأنكر الله هذه الشفاعة فقال
 تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ^(١)) وقال (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ
 لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ^(٢)) وقال عن
 الملائكة (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
 وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ
 وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ^(٣)) وقال (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
 مِنْ قُلُوبِكُمْ شَيْئًا وَلَا يَخَفُ مِنْهُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْلِكُ مِنْ دُونِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(٤)) وقال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَافِلًا ^(٥))

هم الذين يعتقد الناس أنهم يشفعون عند الله بغير اذنه أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنما
 يشفع بإذن ربه إذ يقول له اشفع تشفع وسل تعط ، وأخبر الرسول ﷺ عن نفسه أنه أعطى
 الشفاعة يوم القيامة وأنها من خصائصه فقال وأعطيت الشفاعة . (١) الآية من سورة
 البقرة ، وهي جزء من آية الكرسي . (٢) الآية من سورة النجم ، وكانت في الطبعة
 الثانية مزيداً فيها كلمة والأرض بعد في السموات ، ولكن صحة الآية كما هنا
 (٣) الآيات من سورة الأنبياء ، ومعنى مشفقون خائفون (٤) الآيات من سورة سبأ ،

دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتَنْسَوْنَ
اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (وقال
تعالى) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا
شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ^(١) (وقال تعالى) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ^(٢) (وقال تعالى) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ
بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ^(٣) (وقال تعالى) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَنْ نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ
شُرَكَاءَ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ^(٤) (وقال تعالى) أَمْ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ه قُلِ اللَّهُ الشَّفَاعَةُ
جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ه وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ^(٥) (وقال
تعالى) وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ه يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ
الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ^(٦) (وقال صاحب يس ^(٧)) وَمَا لِي
لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ ه أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ
بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون ؟ ه إِنْ إِذَا لَسْتُ بِإِنْفِي ضَلَّالٌ مُبِينٌ ه إِنْ آمَنْتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُوا ^(٨)

(١) الآية من سورة الأنعام (٢) الآية من سورة السجدة (٣) الآية من سورة
الزخرف (٤) الآية من سورة الأنعام . وكانت كلمة دكتتم ، ساقطة في الأصل الثاني
فردناها لتصح الآية (٥) الآيات من سورة الزمر (٦) الآيات من سورة طه .
(٧) صاحب ياسين هو الرسول ﷺ وانما سمي صاحب ياسين لأنها اشتملت على فضائله
وتكريم الله له ، والمراد - قال الرسول هذه الآيات بإحياء الله تعالى له فهي من كلام الله
إحياء . ولكنها مروية على لسان رسولنا ﷺ (٨) الآيات من سورة يس ، كما يفهم مما سبق

فهذه الشفاعة التي أثبتتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفعنا بتماثيلهم استشفع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفّعوا لنا إلى الله ، وصوروا تماثيلهم فعبدهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها . قال الله تعالى عن قوم نوح (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ^(١)) قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم ، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره ، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها ، حتى لعن من اتخذه قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلي فيها وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل على بن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ^(٢) ولا تماثلاً ^(٣) إلا طمسه ونحاه ، ولعن المصورين ^(٤) . وعن أبي الهياج الأسدي قال لي علي بن أبي

(١) الآية من سورة نوح (٢) المشرف المرتفع كالقبور التي عليها القباب والأضرحة وغيرها من كل قبر ارتفع عن الأرض ، وتسويتها هدمها وجعلها لاصقة بالأرض ، والسنة أن القبر لا يعلو عن الأرض بالبناء بل يكون لحداً أو شقاً لا لعذر كان تكون الأرض نقذف بالماء من داخلها فيبنى فوقها لأجل الضرورة احتراماً للميت ، أما تشييد القبور وتخصيصها ووضع العلامات والرايات على أعاليها وإيقاد الشموع والكهرباء وغيرها داخلها ووضع المناديل ونحوها على قبور الصالحين فهذه من البدع المخالفة لسنة سيد المرسلين وقد نهى الرسول ﷺ عن الصلاة في المساجد التي فيها قبور وعن وضع السرج عليها أو في داخلها ولم تكن المناديل والرايات موجودة في زمانه فما بالك بهذه الزخارف والزينات التي توضع على القبور ثم تتخذ بعد ذلك مساجد إن هذا الجهل جاهل (٣) المراد بالتماثيل الصنم .

(٤) المراد بالمصورين الملغونين الذين يصورون ما يكون أساساً للشرك من صور الناس والحيوانات التي على الهيئة التي تمشي بها وتدخل منها إلى نفوس الناس أساليب التعظيم والتبجيل حتى يأتي عليهم زمن يعبدونها أما صور البحار والأنهار والأشجار وغير ذلك إذا قصد بها إظهار عظمة الله وإبداعه في الكون فلهذه الصور ثواب عظيم ولا حرج في تصويرها وقد بينت ذلك في تعليقي على كتاب تجريد التوحيد المفيد للبقر بنزي .

طالب : إني لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته ، وفي لفظ : ولا صورة إلا طمستها . أخرجه مسلم .

﴿ فصل ﴾

ولفظ التوسل قد يراد به ثلاثة أمور - يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين : أحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته ^(١) والثاني دعاؤه وشفاعته وهذا أيضاً نافع بتوسل به من دعاله وشفع فيه باتفاق المسلمين ، ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب ، فإن تاب والا قتل مرتداً ، ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للعامة والعامة فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة . وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضاً كافر ، لكن هذا أخفى من الأول فمن أنكره عن جهل عرف ^(٢) ذلك فإن أصر على إنكاره فهو مرتد .

أما دعاؤه وشفاعته في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة ^(٣) ، وأما الشفاعة يوم القيامة فذهب أهل السنة والجماعة - وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم - أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة ، وأنه يشفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبار . ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون دون أهل الشرك ولو كان المشرك محباً له معظماً له لم تنقذه شفاعته من النار وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به . ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يقرؤا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه قال : قلت يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة فقال : أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، وعنه في صحيح مسلم قل : قال رسول الله ﷺ : لكل نبي دعوة مستجابة فنعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة يوم القيامة فهي نائلة ^(٤) إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً ، وفي السنن عن عوف

(١) بالإيمان بالرسول ﷺ وبطاعته (٢) أي نبه إلى أنه ينكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة (٣) أي من المسلمين (٤) معنى نائلة أي نافعة وواصله إلى من مات - الحديث

ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : أنا آت من عند ربي فخبرني بين أن يدخل نصف أمي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا ، وفي لفظ قال : ومن لقي الله لا يشرك به شيئا فهو في شفاعتي .

وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب كما قال تعالى : **وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟** ^(١) وقال تعالى : **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** (وقال تعالى : **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ**) وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه **(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)** ^(٢) وفي المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : بعثت بالسيف بين يدي ^(٣) الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل ^(٤) رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم .

والمشركون من قريش وغيرهم الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي ﷺ دماءهم وأموالهم وسبي حريمهم وأوجب لهم النار - كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال **(وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، قُلْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)** وقال **(وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟)** وقال

- (١) الآية من سورة الزخرف (٢) ورد هذا في سورة هود وفي سورة الأعراف ومن ذلك قوله تعالى في سورة هود : **وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ** وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم تو بوا إليه إن ربي قريب مجيب .
- (٣) أى قبل وقوع الساعة بمدة قليلة لأن بين يدي الشيء معناه أمامه قريب منه .
- (٤) أى وأحل له الجهاد وأخذ الغنيمة ولم تحل للأنبياء قبلي .

(قُلْ : لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ هـ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ هـ قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ هـ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ هـ قُلْ : مَنْ يَدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ هـ سَيَقُولُونَ : لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ؟ هـ بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ هـ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ)

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة وليكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ : أَنُنَبِّئُكَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هـ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنْ اللَّهُ يُحْكَمْ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) وكانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك (١) . وقال تعالى (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ هـ بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ؟ هـ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

(١) يريدون بذلك الأصنام التي يتقربون بها إلى الله .

فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ، وَلَسَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَسْكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ^(١)) بَيْنَ سَبْحَانِهِ بِالْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ لَمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلَ مَمْلُوكَهُ شَرِيكَهُ فَقَالَ : هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ يَخَافُ أَحَدُكُمْ مَمْلُوكَهُ كَمَا يَخَافُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ مَمْلُوكَهُ شَرِيكَهُ فَدَلِيفُ تَرْضُونَهُ لَا نَفْسَكُمْ ^(٢) وهذا كما كانوا يقولون : له بنات ، فقال تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ^(٣)) وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ، لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمُ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ : أَيَسْكَهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صننفان : قوم نوح وقوم ابراهيم ، فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم ، وقوم ابراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر . وكل من هؤلاء وهؤلاء يعبدون الجن فان الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون

(١) الآيات من سورة الروم ومعنى حنيفا مستقيما منزها فيه الله عن الشركاء وهذه فطرة الله التي خلق عليها الناس يعرفون بفطرتهم السليمة أنه لا شريك له .

(٢) أى فكيف ترضون لا أنفسكم أن تشركوا بربكم مملوكه مع أنكم لم ترضوا ذلك لا أنفسكم

(٣) كان الكفار يقولون الملائكة بنات الله وهم يكرهون البنات حتى إن أحدهم إذا

بشر بأنثى ولدت له ظل وجهه مسودا كاظما غيظه في نفسه وكانوا يدفنونهن أحياء ويتوارون منهن عارا وقد ورد ذلك في قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا

خلقهم؟ ستسكتب شهادتهم ويسألون) .

الجن فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركتهم قال تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَأْسِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۚ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في المحييا ولا الممات ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتصور لهم في صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا ابراهيم ، أنا المسيح ، أنا محمد ، أنا الخضر ، أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان ، أنا علي ، أنا الشيخ فلان . وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبي فلان أو الشيخ فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم جننا يشهد بعضهم لبعض . والجن كالإانس فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصي وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيئا فيزيئنا في صورته ويقول : أنا فلان . ويكون ذلك في برية ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاما ويسقيه شرابا أو يده له على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة (١) فيظن ذلك الرجل أن الشيخ الميت أو الحي نفسه فعل ذلك (٢) ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته ، أو هذا ملك جاء على صورته . وإنما يكون ذلك جنيا فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان . وقد قال الله تعالى (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزيز والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله كما أن الذين يعبدونهم عباد الله وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أى نطلب من الملائكة

(١) المراد ببعض الأمور الواقعة الغائبة الأمور التي حدثت ولكن لم يعلمها هذا الشخص الإنسي وكان الجن يسترقون السمع ويعلمون بعض المغيبات إلى أن أرسل الله عليهم الشهب (٢) كان التركيب في الأصل الذي علقنا عليه هو (فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحي فعل ذلك) وظاهر أن هذا التركيب خطأ من جهة اللغة والنحو . لأن التوكيد لا يتقدم على المؤكد وكلمة نفس توكيد لكاملة الشيخ . ولو قدمت عليها كما في الأصل لاختلف المعنى ولم يؤد المطلوب

والأنبياء أن يشفعوا فإذا أتينا قبر أحد طلبنا منه أن يشفع لنا فإذا صورنا تمثاله -
والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى فى كنائسهم - قالوا
فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ونحن نخطب هذه التماثيل ومقصودنا
خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله . فيقول أحدهم : ياسيدى فلانا أوياسيدى جرجس
أو بطرس أو يامسى الخونة مريم أو ياسيدى الخليل أو موسى بن عمران أو غير
ذلك ، استغفرلى إلى ربك ، وقد يخاطبون الميت عند قبره : سللى ربك ، أو يخاطبون
الحى وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرا حيا وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها :
ياسيدى فلانا ! أنا فى حسبك ، أنا فى جوارك ، اشفع لى إلى الله ، سل الله لنا أن
ينصرنا على عدونا ، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا وكذا
فسل الله أن يكشف هذه الكربة . أو يقول أحدهم : سل الله أن يغفر لى . ومنهم
من يتأول^(١) قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) ويقولون : إذا طلبنا منه الاستغفار بعد
موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ، ويخالفون بذلك اجماع الصحابة
والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين فإن أحدا منهم لم يطلب من النبي ﷺ بعد
موته أن يشفع له ولا سألته شيئا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين فى كتبهم ،
وإنما ذكر ذلك من ذكر من متأخري الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضى
الله عنه سيأتى ذكرها وبسط الكلام عليها ان شاء الله تعالى .

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم
وفى مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم ، هو أعظم أنواع الشرك الموجود فى المشركين من غير
أهل الكتاب ، وفى مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحسدوا من الشرك
والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى . قال الله تعالى (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ
الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟)^(٢) فان دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفى مغيبهم

(١) تأولهم هذه الآية أنهم يقولون جاءوك أى فى الحياة أو فى الممات سيان فيذهبون
إليه بعد موته ويستغفرون الله عنده ويسألونه أن يستغفر لهم مع أن الآية خاصة بالحياة .
(٢) الآية من سورة الشورى ومعنى أم لهم شركاء . بل لهم شركاء - إضراب مع استفهام

وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال - وتمثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتاباً ، وليس هو واجبا ولا مستحبا باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير من الناس بمن له عبادة وزهد ، وبذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان . وفيهم من ينظم القصائد في دعاء الميت والاستشفاع به والاستغاثة أو يذكرون ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع ولا واجب ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين ، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو يعتقد أنها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين ، فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب ، وكثير من الناس يذكرون في هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح ، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك .

وجواب هؤلاء من طريقتين : أحدهما - وهو - (١) الاحتجاج بالنص والاجماع والثاني القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد فإن فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة .

أما الأول فيقال قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وباجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب ، وعلم أنه لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ويستشفعوا بهم لابعثهم ولا في مغيبهم ، فلا يقول أحد : يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله ، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا . وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين : يا نبي الله يا رسول الله ادع الله لي سل الله لي استغفر الله لي

إنكارى أى ليس لهم من يشرع لهم غير شرع الله

(١) لعله قد سقط شيء هنا من النسخ ككلمة العمدة أو الأقوى فإن الأول أقوى

الجوابين والعمدة فيهما وإلا فلا حاجة إلى كلمة وهو ، (ر)

سل الله لي أن يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني ، ولا يقول أشكوا إليكم ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي ، أو أشكوا إليك فلانا الذي ظلمني ، ولا يقول : أنا نزيلك أنا ضيفك أنا جارك ، أو : انت تجير من يستجيرك ، أو انت خير معاذ يستعان به ، ولا يكتب أحد ورقة ويلقها عند القبور^(١) ولا يكتب أحد محضرا انه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين كما يفعله النصارى في كنائسهم ، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم - فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يشرع هذا لأمته . وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئا من ذلك ، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحجب ذلك أحد من أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا ذكر أحد من الأئمة لا في مناسك الحج ولا غيرها انه يستحب لأحد أن يسأل النبي ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته أو يشكوا إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين . وكان أصحابه يبتلون بأنواع البلاء بعد موته فتارة بالجذب وتارة بنقص الرزق وتارة بالخوف وقوة العدو وتارة بالذنوب والمعاصي ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ﷺ

(١) يكثر ذلك في مصر في القاهرة في قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث يكتب الناس الخطابات إليه بحاجاتهم ويطلبون منه قضاءها وذلك مخالف للدين ، وإذا كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقرأ الخطابات وهو ميت فأولى به أن يعلمها بدون كتابة بأن يكون ذلك مشافهة كما يفعل العوام عند قبور غيره من الصالحين كالإمام الحسين والسيدة زينب وغيرهم ، وأكثر هؤلاء الذين يفعلون ذلك مدخولون في عقوبتهم مستول عليهم الجمل والعمى حتى إنهم يقصدون غير الله ويتركون رب السموات والأرض وخالق الخلق ورازقهم الذي هو أعلم بحالهم الظاهرة والخفية وهو يعلم السر وأخفى ، وهو القائل دأبوني استجب لكم ، ولم يقل ادعوا الرسول ولا فلانا من الصالحين ، والإمام الشافعي رضي الله عنه لا يرضى بذلك وهو الذي بنى مذهبه على السنة وقال (إذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط) وإذا كان الرسول ﷺ يقصد ربه ويدعوه أفلا تكون لنا أسوة حسنة بنينا ﷺ فنَدعوا ربنا ونبتعد عن دعاء غيره ، إن قصد غير الله شرك وضلال مبين نسأل الله الهداية والتوفيق إلى الصراط المستقيم

ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول : نشكو إليك جدد الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل الله لنا أو لأمته أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثه التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين . وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة وهي ضلالة باتفاق المسلمين ، ومن قال في بعض البدع إنها بدعة حسنة فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة ، فاما ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين أنها من الحسنات التي يتقرب بها الى الله ومن تقرب الى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمر إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان وسبيله من سبيل الشيطان كما قال عبد الله بن مسعود^(١) خط لنا رسول الله ﷺ خطا وخط خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال : هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ، ثم قرأ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه ولا يخالف السنة المعلومة وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، فاتباع من خالف السنة والإجماع القديم^(٢) لا سيما وليس معه في بدعته إمام من أئمة المسلمين ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين ، ولا من يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع فلا ينخرم الإجماع بمخالفته ، ولا يتوقف الإجماع على موافقته ، ولو قدر أنه نازع في ذلك عالم مجتهد لسكان مخصوصا بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله ، فكيف إذا المنازع^(٣) ممن ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعي ، وإنما

(١) الحديث رواه أحمد وعبد بن حميد والبخاري وغيرهم وصححه الحاكم ولفظه : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه ، ثم قرأ (وان هذا صراط على) الآية (ر) (٢) ليس في لاحق الكلام خبر لهذا المبتدأ فالظاهر أنه قد أسقطه النسخ وأن الأصل هكذا فاتباع من خالف السنة والإجماع القديم غير جائز لا سيما ، الخ أو تضع بذل غير جائزة كلمة بدعة ،

(٣) كذا الأصل ولعل صوابه : المنازع ، أو فكيف إذا كان المنازع ، (ر)

اتبع من تكلم في الدين بلا علم ، ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . بل ان النبي ﷺ مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجبا ولا مستحبا فانه قد حرم ذلك وحرم ما يفضى اليه كما حرم اتخاذ قبور الانبياء والصالحين مساجد ، ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبي ﷺ قال قبيل أن يموت بخمس ، ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم من ذلك ، وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال قبيل موته : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما فعلوا قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

واتخاذ المسكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك ، والمسكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لادعاء المخلوقين فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المسكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله . والفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة^(١) لما في ذلك من المفسدة الراجحة وهو التشبه بالمشركين الذي^(٢) يفضى إلى الشرك . وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات ، ولهذا تنازع العلماء في ذوات^(٣) الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات ، وهو أظهر قولي العلماء لأن النهي إذا كان لسد الذريعة أيسر للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه في هذه الأوقات ويفوت

(١) الأوقات الثلاثة وقت طلوع الشمس واستوائها في وسط السماء وغروبها

(٢) المراد التشبه بالمشركين الذين يعبدون الشمس من دون الله فيسجدون لها

ويعظمون الأوقات الثلاثة

(٣) أى في الصلوات التي لها أسباب كالفاتحة والسنة المؤقتة وسنة الوضوء وتحية المسجد

وتوابع الفرائض ونحو ذلك فلا تحرم في هذه الأوقات

إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها . فأبيحت لما فيها من المصلحة ، بخلاف ما لاسبب (١) له فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا يفوت بالنهي عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهي عنه . فإذا كان نهي عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك أثلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها ، كان معلوما أن دعوة الشمس والسجود لها هو محرم في نفسه أعظم تحريما من الصلاة التي نهى عنها أثلا يفضى إلى دعاء الكواكب - كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد فنهى عن قصدتها للصلاة عندها أثلا يفضى ذلك إلى دعائهم والسجود لهم ، كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد .

ولهذا كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين : زيارة شرعية وزيارة بدعية . فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له . فالقيام (٢) على قبره من جنس الصلاة عليه ، قال الله تعالى في المنافقين (وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) فنهى نبيه عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله ومانوا وهم كفرون . فلما نهى عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهي الكفر دل ذلك على انتفاء هذا النهي عند انتفاء هذه العلة ، ودل تخصيصهم بالنهي على أن غيرهم يصلى عليه ويقام على قبره ، إذ لو كان هذا غير مشروع في حق أحد لم يخصوا بالنهي ولم يعمل ذلك بكفرهم . ولهذا كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ، فكان النبي ﷺ يصلى على موتى المسلمين وشرع ذلك لأئمة ، وكان إذا دفن الرجل من أئمة يقوم على قبره ويقول سلوا له التثبيت فإنه الآن يسئل ، رواه أبو داود وغيره وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن

(١) ما لا سبب له هو النفل المطلق الذي يتطوع به المصلى لوجه الله من غير أن يرد

فيه نص بتوقيت

(٢) المراد بالقيام على قبره زيارته وليس الزيارة مقيدة بالقيام بل إذا زار المرء القبر

جالسا أو مضجعا جاز والتعبير بالقيام للغالب

يقول أحدهم ، السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ؛ وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لاتحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، والأحاديث في ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم ، وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أنه قال أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وبكى من حوله ثم قال ، استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة ، فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لاتشرع إلا في حق المؤمنين .

وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الخوانج أو يطلب منه الدعاء والشفاعة أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء . فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك ، ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهياً عنه ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي ﷺ ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وقال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا . » وقال « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك ، فإذا كان هذا محرماً وهو سبب لخط الرب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء^(١) عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب

(١) دعاء الميت هو رجاءه نفسه أن يقضى الحاجات كن يقول يا سيدي يا بدوي اشف لي مريضى أو اقض لي حاجتى أو انصرنى على عدوى أو اقصف عمر عدوى ونحو ذلك ،

إجابة الدعوات ونيل الطلبات^(١) وقضاء الحاجات ، ؟ وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحهم .

وقد استفاد عن ابن عباس وغيره في صحيح البخارى وفي كتب التفسير وقصص الأنبياء في قوله تعالى (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) ان هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم ، قال ابن عباس ثم صارت هذه الأوثان في قبائل العرب .

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئاً آخر ذكروه في زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه (كصاحب النسر^(٢) المصنوعون بها) وغيرها ، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم فانهم لا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ولا أنه يعلم الجزئيات ويسمع أصوات عبادته ويحجب دعاءهم فشفاعة الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من أنها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه ، كما أن ما يكون من انزال المطر باستسقامهم ليس سببه عندهم إجابة دعائهم ، بل هم يزعمون ان المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات الفلكية أو القوى الطبيعية ، فيقولون ان الإنسان إذا أحب

والدعاء عنده أن يعتقد الداعي أن هذا المكان الذى فيه القبر مكان طاهر يحجب فيه الدعاء فيدعو الله فيه ، وهذا أيضاً حرام لأن فيه سيلاً الى دعاء الميت في المستقبل أو اعتقاد أن للميت أثراً في إجابة الدعاء ، والدعاء به أن يتوسل به الى الله حتى يحجب دعاؤه كمن يقول يا سيدى إبراهيم يادسوقى نفسك قريب من الله اطلب لى منه أن يشفينى أو ينصرنى أو يخرج ابنى من الجيش أو يقول يا الله أتوسل اليك بجاء الامام الحسين أن تقضى لى حاجتى فهذا كله شرك وضلال وينبغى ألا يقصد غير الله فهو أعلم بعبده وأقرب اليه من جبل الوريد ، ولا تنفع عنده الوساطات ولا يصعد اليه أحد بالدعوات وإنما هو كما قال (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) (١) الطلبات بفتح الطاء وكسر اللام جمع طلبه وهى الحاجة

(٢) كذا بالأصل ولعله تحريف من الناسخ

رجلا صالحا قد مات لاسميا ان زار قبره فانه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلسكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك - بل وقد لا تعلم الروح المستشفعة بها بذلك ومثلوا ذلك بالشمس اذا قابلها مرآة فانه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ثم اذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم .

وفى هذا القول من أنواع السكفر ما لا يخفى على من تدبره ، ولاريب ان الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بنى آدم ، وجعل القبور أوثانا هو أول الشرك ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن انه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكله وعانقه وهذا يرى عند قبور الأتبياء وغيرهم وانما هو شيطان فان الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعى أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذبا في ذلك^(١) .

وفى هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره وهي كثيرة جدا والجاهل بظن ان ذلك الذى رآه قد خرج من القبر وعانقه أوكله هو المقبور أو النبي

(١) كما تحدث هذه الأمور من شياطين الجن الذين يتصورون بصور الإنس تحدث أيضا من شياطين الإنس الذين يستغلون عقائد الناس الفاسدة فيذهبون الى المقابر ويكلمون زائريها بكلام ينسبونه الى الميت ، أو يلبسون السواد ويغيرون أشكال وجوههم لينخفوا الزائرين في الليل ليؤهمهم أن العقارب تسكن الجبانات أو ليوحوا اليهم كلاما في صالح بعض الدجالين الذين يعيشون في المدينة أو القرية بابهاز الدجالين وباتفاق معهم ، وقد يحدث ذلك بسبب التخيل والأوهام ولا سيما اذا كان الوجود عند القبور ليلا فان الزائر في هذا الوقت يكون خائفا فزعا مما في نفسه من العقائد أو متشوقا لرؤية الميت الصالح لما سمعه من أن الموق يخرجون فيقابلون بعض زائريهم ، وكل ذلك لم يره أحد معاصرينا ولا نكاد نصدق من عاش قبلنا في رواياتهم عن ذلك لأن أكثر المروى كذب يراد به إثبات عقائد الضلال في أذهان الناس .

أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم انه شيطان ويتبين ذلك بأمر (أحدها) أن يقرأ آية الكرسي بصدق فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ في الأرض أو احتجب ولو كان رجلاً صالحاً أو ملكاً أو جنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسي وإنما تضر الشياطين كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجنى : اقرأ آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبي ﷺ : صدقت وهو كذوب ، (ومنها) أن يستعين بالله من الشياطين (ومنها) أن يستعين بالمعوذة^(١) الشرعية فإن الشياطين كانت تعرض للانبياء في حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم كما جاءت الجن إلى النبي ﷺ بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأناه جبريل بالمعوذة المعروفة التي تضمنها الحديث المروى عن أبي التياح انه قال سأل رجل عبد الرحمن ابن حبش^(٢) وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبي ﷺ كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدثت عليه من الشعاب والأودية وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ ، قال فرعب رسول الله ﷺ فأناه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل ، قال : ما أقول ؟ ، قال قل : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذراً^(٣) وبرأ ، من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن ، قال فطفت نارهم وهزمهم الله عز وجل

(١) المعوذة الشرعية التي يريد المؤلف هي التي علمها جبريل للنبي ﷺ في الحديث الثاني في هذه الصفحة ، والمعوذات الشرعية العامة هي سورة الناس وسورة الفلق ، وما روى عن النبي ﷺ من قوله (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة)

(٢) صوابه كما في الإصابة ، دخنس ، بالمعجمة الفوقية بعدها نون بوزن جعفر ، وقيل «حبشى» بضم الحاء المهملة والحاء المشددة وقيل «دخنس» قال الحافظ في الإصابة : ذكره البخاري في الصحابة وقال في أسناده نظر . وقال ابن منده : في حديثه ارسال أبو نعيم - أقول وهذا الحديث - وليس له غيره - وقد روى الحديث من طريق جعفر بن سليمان الرافضي وهو من ضعفه بعضهم ، والمصنف لم يصحح الحديث (ر)

(٣) ذراً وبرأ معناهما خلق وأنشأ

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ ، أن عفريتاً من الجن جاء يفتك في البارحة ليقطع على صلاتي فأمكنني الله عز وجل منه فذعته (١) فأردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) فردّه الله تعالى خاسئاً ، وعن عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه (٢) فخنقه ، قال رسول الله ﷺ ، حتى وجدت برد لسانه على يدي ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً (٣) حتى يراه الناس ، أخرجه النسائي وإسناده على شرط البخاري كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ كان يصلي صلاة الصبح وهو خلفه (٤) فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال : لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل ، رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه . وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه قال قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول « أعوذ بالله منك » ثم قال « ألعنك بلعنة الله ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من صلاته قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال « ان عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجمعه في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة ، فاستأخر . ثم أردت أن آخذه ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة » فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

(١) أي اجتمهته وهزمته واستوليت عليه

(٢) أي أخذ النبي ﷺ العفريت فألقاه على الأرض فخنقه حتى خرج لسانه من فيه بسبب شدة الخنق وحتى أحس الرسول ﷺ برد لسان العفريت أو برد لعابه على يده على اختلاف الروايات

(٣) أي مربوطاً إلى إحدى أعمدة المسجد كما يفسر ذلك بعض الروايات الأخرى

(٤) أي وأبو سعيد خلف النبي ﷺ

لتؤذيهم وتفسد عبادتهم فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد فكيف من هو دون الأنبياء ؟ فالنبي ﷺ قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد . وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء . وأما من ابتدع ديناً لم يشرعوه فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لآفته وابتدع الغلو في الأنبياء والصالحين والشرك بهم فإن هذا يتلعب^(١) به الشياطين ، قال تعالى (إِنَّهُ^(٢) لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ^(٣) عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)

(ومنها) أن يدعو الرائي بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال (ومنها) أن يقول لذلك الشخص أنت فلان ؟ ويقسم عليه بالاقسام المعظمة ويقرأ عليه قوارع القرآن إلى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين .

وهذا كما أن كثيراً من العباد يرى السكبة تطوف به ، ويرى عرشاً عظيماً وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويطن أن تلك الصورة هي الله تعالى وتقدس ، ويكون ذلك شيطاناً . وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر^(٤) في حكايته المشهورة حيث قال : كنت مرة في العبادة فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور فقال لي : يا عبد القادر ! أنا ربك وقد جعلت لك ما حرمت على غيرك . قال ، فقلت له أنت الله الذي لا إله إلا هو ؟ أخساً يا عدو الله . قال فتمزق ذلك النور وصار ظلمة وقال :

(١) لعل صواب العبادة تلعب به الشياطين

(٢) الضمير في أنه يعود على الشيطان الرجيم المذكور في الآية السابقة على هذه الآية

وهي ، فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، والآيات من سورة النحل

(٣) الخطاب لإبليس

(٤) هو الشيخ عبد القادر الجيلاني العالم الاسلامي المتصرف المشهور

يا عبد القادر ، نجوت منى بفقهك في دينك وعلمك وبمنازلتك في أحوالك ، لقد
فتنت بهذه القصة سبعين رجلا . فقيس له : كيف علمت انه الشيطان ؟ قال بقوله لى
« حلت لك ما حرمت على غيرك » ، وقد علمت أن شريعة محمد ﷺ لا تنسخ ولا تبدل
ولأنه قال أنا ربك ولم يقدر أن يقول أنا الله الذى لا إله إلا أنا (١)

ومن هؤلاء من اعتقد ان المرئى هو الله وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم
يرون الله تعالى فى اليقظة ومستندهم ما شاهدوه ، وهم صادقون فيما يخبرون به ولكن
لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان ، وهذا قد وقع كثيرا لطوائف من جهال العباد يظن
أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه فى الدنيا لأن كثيرا منهم رأى ما ظن أنه الله وإنما
هو شيطان ، وكثير منهم رأى من ظن أنه نبي أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطانا
وقد ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « من رأى فى المنام فقد رأى حقاً فان
الشيطان لا يتمثل فى صورتي » فهذا فى رؤية المنام لأن الرؤية فى المنام تكون حقاً
وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به فى المنام وأما فى اليقظة فلا يراه أحد
بعينه فى الدنيا فمن ظن ان المرئى هو الميت فإنا أتى (٢) من جهله ولهذا لم يقع مثل هذا
لأحد من الصحابة والتابعين لهم باحسان .

وبعض من رأى هذا أو صدق من قال إنه رآه اعتقد ان الشخص الواحد يكون
بمكانين فى حالة واحدة بخالف صريح المعقول ، ومنهم من يقول هذه رقيقة (٣) ذلك
المرئى أو هذه روحانيته أو هذا معناه لشكل (٤) ولا يعرفون أنه جنى تصور بصورته .
ومنهم من يظن أنه ملك والملك يتميز عن الجنى بأمر كثيرة ، والجن فيهم الكفار

(١) إنما يتجه الكلام بحذف كلمة الذى أو بوضع كلمة هو بدل كلمة أنا الاخيرة « ر » .
أقول يتجه الكلام من غير حذف ولا زيادة على أن فى الكلام التفاتا من الغيبة إلى التكلّم ،
وهو أسلوب بلاغى ورد كثيرا فى القرآن والحديث وكلام العرب

(٢) معنى هذه الجملة . أن من ظن أن الميت أحى له حتى رآه فى اليقظة ، فإنما أتى أى
دخل عليه هذا الظن وصدقه واعتقد أنه حق بسبب جهله وعدم رسوخ قدمه فى العلم والمعرفة
(٣) الرقيقة هى ما يعبر عنها الناس بالقرينة وهى الشبح أى شبح المرئى مصورا بصورته
(٤) أعلما تشكّل أى ظهر فى شكل حسى « ر »

والفساق والجهال وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد ﷺ تسليماً ، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة وكذلك الذين يدعون السكواك وغيرها من الأوثان تنزل على أحدهم روح يقول هي روحانية السكواك ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان ، فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكشف بها ، وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك ، وتارة يجلبون له من يريد من الإنس ، وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً ، وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد ، فتنهم من يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامه مع أنه لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبي ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال . ومنهم من يذهب إلى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية فلا يحرم إذا حاذى الميقات . ومعلوم أن من أراد نسكاً بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلا محرماً ، ولو قصد لها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأوراً أيضاً بالإحرام من الميقات ، وهل ذلك واجب أو مستحب ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا باب واسع ومنه السحر والسكاهة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

وعند المشركين عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة في ذلك من الحسكايات ما يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نيباً كان أو غير نبي إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ، كما أن الذين يدعونهم في مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون في صورتهم أو يظنون أنه في صورتهم ويقول أنا فلان ويكلمهم ويقضى بعض حوائجهم فإنهم يظنون أن الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى مطلوبهم وإنما هو من الجن والشياطين ، ومنهم من يقول هو ملك من الملائكة والملائكة لا تعين المشركين وإنما هم شياطين أضلهم عن سبيل الله .

وفي مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التي يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه . وأهل الجاهلية فيها نوعان : نوع يكذب بذلك كله ، ونوع يعتقد ذلك كرامات لأولياء الله . فالأول يقول إنما هذا خيال في أنفسهم لا حقيقة له في الخارج ، فإذا قالوا ذلك جماعة بعد جماعة فمن رأى ذلك وعينه موجوداً أو تواتر عنده ذلك عمن رآه موجوداً في الخارج وأخبره به من لا يرتاب في صدقه كان هذا من أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المبتدعين المشاهدين لذلك والعارفين به بالأخبار الصادقة . ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا أنه من أولياء الله مع كونهم يعلمون أنه لا يؤدي فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس ولا يجتنب محارم الله لا الفواحش ولا الظلم بل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التي وصف الله بها أوليائه في قوله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فيرون من هو من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى له من المكاشفات والتصرفات الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء الله المتقين ، فهم من يرتد عن الإسلام وينقلب على عقبيه ويعتقد فيمن لا يصلي بل ولا يؤمن بالرسول بل يسب الرسل ويتنقص بهم أنه من أعظم أولياء الله المتقين . ومنهم من يبقى حائراً متردداً شاكاً مرتاباً يقدم إلى الكفر رجلاً وإلى الإسلام أخرى^(١) وربما كان إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان وسبب ذلك أنهم استدلوا على الولاية بما لا يدل عليها فإن الكفار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلك قال تعالى : (هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَكٍ أَثِيمٌ) وهؤلاء لا بد أن يكون فيهم كذب وفيهم مخالفة للشرع ، ففيهم من الإثم والإفك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذي بعث به نبيه ﷺ . وتلك الأحوال الشيطانية نتيجة ضلالم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم ، وهي دلالة وعلامة على ذلك . والجاهل الضال يظن أنها نتيجة إيمانهم

(١) هذا معنى مثل عربي أصله فلان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ومعناه فلان يقدم رجله تارة ويؤخرها تارة أخرى وهو كناية عن التردد في الأمر وعدم الإقدام عليه إقدام الواثق المطمئن ، وليس المعنى أنه يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً أخرى وإلا لما فهم معنى المثل

وولايتهم لله تعالى وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم لله سبحانه ، وذلك أنه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، كما قد تكلمنا على ذلك في مسألة الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . ولم يعلم أن هذه الاحوال التي جعلها دليلاً على الولاية تكون للكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم مما تكون للبنّاتيين إلى الاسلام والدليل مستلزم للدلول مختص به لا يوجد بدون مدلوله ، فإذا وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للإيمان فضلاً عن الولاية ولا كانت مختصة بذلك فامتنع أن تكون دليلاً عليه .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم لا ثمرة الشرك والبدعة والفسق ، وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة الدين أو الحاجة للمسلمين ، والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات ، وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه متعدد حدربه ، وإن كان سببها الإيمان والتقوى فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها في طاعة الشيطان فهذا المسال وإن ناله بسبب عمل صالح فاذا أنفقها في طاعة الشيطان كان وبالاً عليه فكيف إذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو إلى كفر آخر وفسوق وعصيان ، ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسلام . ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعون عنه عند الأوثان كاخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ، فاذا شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه أو كلبه ظن أن ذلك هو النبي المقبور والقبر لم ينشق وإنما الشيطان مثل له ذلك كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ، ويكون هو الشيطان تمثل له صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر نحن لانبقي في قبورنا بل من حين يقبر أحدنا يخرج من قبره ويمشي بين الناس . ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنائز يمشي يأخذ بيده إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها . وأهل الضلال إما أن يكذبوا بها وإما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته . وربما قالوا هذا روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت حتى قد يكون من يرى ذلك

الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ولا يعلم بأن ذلك حين تصور بصورته ليس هو ذلك الإنسى .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا قال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَسَكُنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِير ، وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) . ومثل هذا كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك . بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضى إلى ذلك ، فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته فإنه ينهى من يفعل ذلك ، بخلاف دعائهم بعد موتهم فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك ، فمن رأى نبيا أو ملسكا من الملائكة وقال له « ادع لى » لم يفض ذلك إلى الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه فإن ذلك يفضى إلى الشرك به كما قد وقع فإن الغائب والميت لا ينهى من بشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك إلى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين . ومعلوم أن الملائكة تدعو للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقال تعالى (تَسْكَدُ السَّمَوَاتُ بِتَفَطُّرِنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) فالملائكة يستغفرون للدومنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روى أن النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعو ويشفع للأخيار من أمته هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد . وإذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون لوجهين (أحدهما) أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب منهم وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة في الطلب منهم (الثاني) أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي إلى الشرك بهم ففيه هذه المفسدة ، فلو قدر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة فكيف ولا مصلحة فيه ، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فانه لا مفسدة فيه فانهم ينهون عن الشرك بهم ، بل فيه منفعة وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فانهم في دار العمل والتسكليف وشفاعتهم في الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لا يجب عليهم فعلها ليس واجبا على السائل ولا مستحبا بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه والتوكل عليه وسؤال الخلق في الأصل محرم لكنه أبيع للضرورة وتركه توكلا على الله أفضل ، قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ^(١) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) أى ارغب إلى الله لا إلى غيره ، وقال

(١) انصب أى اتعب في العبادة بعد فراغك من شئون الدنيا .

تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فجعل الإتياء لله والرسول ، لقوله تعالى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) فأمرهم بارتضاء الله ورسوله . وأما في الحسب فأمرهم أن يقولوا : حسبنا الله ، لا أن يقولوا : حسبنا الله ورسوله . ويقولوا : « إنا إلى الله راغبون » ، لم يأمرهم أن يقولوا : إنا لله ورسوله راغبون ، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى (وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقد قال النبي ﷺ لابن عباس : يا غلام ! إني معك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما أنت لاق ، فلو جهدت الخليفة على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضاء مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وهذا الحديث معروف مشهور ولكن قد يروى مختصرا وقوله : إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، هو من أصح ما روى عنه - وفي المسند لأحمد أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناوطني إياه ، ويقول : خيلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئا . وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ بايع طائفة من أصحابه وأسر إليهم كلمة خفية أن لا تسألوا الناس شيئا ، قال عوف فقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد : ناوطني إياه .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، ، وقال : هم الذين لا يسترقون^(١) ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم

(١) بين المؤلف معنى الاسترقاء من قوله يسترقون وهو طلب الرقيا المعروفة ولا يكتون أي لا يستعملون السكي بالنار والنهي عنه مقيد بما إذا لم يكن دواء فإذا كان علاجاً من مرض فهو مستحب بل واجب إذا تعين علاجاً ، ولا يتطيرون أي لا ينشأون وقد قال

يتوكلون ، فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أى لا يطلبون من أحد أن يرقىهم .
والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك . وقد روى فيه « ولا يرقون » ،
وهو غلط فان رقيهم لغيرهم ولا أنفسهم حسنة ، وكان النبي ﷺ يرقى نفسه وغيره
ولم يكن يسترقى ، فإن رقيقته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا
مأمور به فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم
وموسى وغيرهم . وما يروى أن الخليل لما ألقى في المنيحنيق^(١) قال له جبريل سل قال
« حسبي من سؤالي عليه بحالى ، ليس له إسناد معروف وهو باطل بل الذى ثبت فى
الصحيح عن ابن عباس أنه قال « حسبي الله ونعم الوكيل » ، قال ابن عباس : قالها
إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس « إن الناس قد جمعوا لكم
فاخشوهم »^(٢) ، وقد روى أن جبريل قال^(٣) هل من حاجة قال « أما إليك فلا » ، وقد
ذكر هذا الإمام أحمد وغيره . وأما سؤال الخليل لربه عز وجل فهذا مذكور فى
القرآن فى غير موضع فكيف يقول حسبي من سؤالي عليه بحالى ! والله بكل شىء
عليم ، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه لأنه سبحانه جعل هذه
الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إنابة العابدين ، وإجابة السائلين . وهو سبحانه يعلم
الاشياء على ما هى عليه ، فعليه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا يتافى أن يأمر هذا
رسول الله ﷺ « لاعدوى ولا طيرة » ، أى لاعدوى من المرض مؤثرة بنفسها وانما يكون
ذلك اذا أراد الله ، والطيرة التشاؤم والتشاؤم من عادات الجاهلية كانوا اذا رأوا الشىء
لا يحبونه تشاءموا منه وأيقنوا أنهم سيحدث لهم الضرر برؤيته ، وقد أفسدت عليهم هذه
العقيدة حياتهم فكانوا يؤجلون سفرهم أو يمتنعون عن الخروج من منازلهم اذا رأوا
ما يسكرهونه أو سمعوا كلمة سيئة أو صرت حيوان كالغراب مثلاً أو البومة ولبعض المنشائمين
أحوال يرثى لها العقلاء لما يجلب التشاؤم لاهله من الضرر وفوات المصالح .

(١) هو آلة كبيرة تذف بها الحجارة الى مكان بعيد وكانت تستعمل فى الحرب قديماً وقد
وضع إبراهيم عليه السلام فى هذه الآلة ليقذف فى النار .

(٢) هذا جزء من آية من سورة آل عمران وتامها « الذين قال لهم الناس إن الناس
قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومعنى إن الناس قد
جمعوا لكم - ان أعداءكم قد جمعوا الجموع وحشدوا الجيوش لحربكم .

(٣) أى قال لإبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار .

بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التي تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته . ولكن العبد قد يكون مأمورا في بعض الاوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روى في الحديث « من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفي الترمذى عن النبي ﷺ أنه قال « من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، قال الترمذى حديث حسن غريب » .

وأفضل العبادات البدنية الصلاة وفيها القراءة والذكر والدعاء ، وكل واحد في موطنه مأمور به ، ففي القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن - وفي الركوع والسجود ينهى عن قراءة القرآن ويؤمر بالدعاء كما كان النبي ﷺ يدعو في آخر الصلاة ويأمر بذلك والدعاء في السجود حسن مأمور به ويجوز الدعاء في القيام أيضا . وفي الركوع وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور به ، وقد سأل الخليل وغيره ، قال تعالى عنه (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وقال تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وكذلك دعاء المسلم لآخيه حسن مأمور به وقد ثبت في الصحيح عن أبي الدرداء

عن النبي ﷺ أنه قال : ما من رجل يدعو لأخيه بظهر^(١) الغيب إلا وكل الله به مملوكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل آمين ولك بمثله ، أى بمثل ما دعوت لأخيك به وأما سؤال المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما في قوله تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وقال تعالى (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) وقال تعالى (وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) وهذا لأن العلم يجب بذله فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه أجنه الله بلجام من نار يوم القيامة . وهو يزكو^(٢) على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل . ولهذا يشبه بالمصباح ، وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالآمانات مثل الوديعة والمضاربة ، لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده ، وكذلك مال الفيء^(٣) وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولي الأمر ، للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية ، لأن المستولى يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه . ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه ، كما استطعم موسى والحضر أهل القرية . وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه . وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه ، فالبائع يسأل الثمن والمشتري يسأل المبيع . ومن هذا الباب قوله تعالى (وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)^(٤) ومن السؤال مالا يكون مأمورا به ، والمسئول مأمور بإجابة السائل . قال تعالى

(١) بظهر الغيب أى والمدعو له غائب غير حاضر الدعاء حيث يكون الدعاء أبعد من الرياء ولا يتمكن المدعو له من الرد على الداعي فبوكل الله الملك لينوب عن المدعو له .

(٢) يزكو أى يزيد ويبارك الله فيه ويعطى صاحبه المزيد من علمه وفضله .

(٣) الفىء هو ما يحصل عليه المسلمون من الكفار بدون حرب وهذا يقسم على المسلمين وعلى الرسول ﷺ في حياته ولقرايته بعد موته وللفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل فللمستحق فيه أن يسأل حقه منه .

(٤) الآية من سورة النساء ومعنى تساءلون به تحلفون به عند سؤال بعضهم لبعض الحاجات التي يحل سؤالها .

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) وقال تعالى (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) وقال تعالى (فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) ^(١) ومنه الحديث (إن أحدكم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها) ^(٢) نارا ، وقوله « اقطعوا عني لسان هذا » ^(٣) .
وقد يكون السؤال منها عنه نهى تحريم أو تنزيه وإن كان المستول مأمورا بإجابة سؤاله ، فالنبي ﷺ كان من كماله أن يعطى السائل وهذا في حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس سؤال السائل منها عنه . ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر الصحابة سألوه شيئا من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين كما أشار عليه عمر في بعض مغازبه لما استأذنه في نحر بعض ظهرهم ^(٤) فقال عمر : يا رسول الله كيف بنا إذا لقينا العدو غدا رجالا ^(٥) جميعا ! وليكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة فإن الله يبارك لنا في دعوتك ، وفي رواية فإن الله سيغنيئنا بدعائك . وإنما كان سأل ذلك بعض المسلمين ، كما سأل الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره ، وكما سأله أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس ، وكما سأل أبو هريرة أن يدعو الله أن يحبيه وأمه إلى عباده المؤمنين ، ونحو ذلك .

(١) الآية من سورة الحج وتامها « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتز » . والبدن جمع بدنة وهي الجمال تهدي إلى البيت الحرام وتذبح وتفرق على أهله والقانع الفقير الذي لم يسأل والمعتز المعتز للسؤال .

(٢) يتأبطها أى يجعلها تحت إبطه وهو آخر الجنب من الصدر وآخر العضد والمراد أنه إذا سأل وهو غير مستحق فأخذ شيئا وخرج به من عند الرسول فكأنما يخرج حاملا نارا (٣) المراد باللسان هنا أثره وهو السؤال يقول ﷺ للصحابة أعطوا هذا السائل حتى يقطع عني لسانه أى سؤاله .

(٤) المراد بالظهر ما يركب من الدواب يسمى ظهرا تسمية بمحل منفعتة لأن الظهر هو الذي يركب ويحمل عليه ونحو ذلك . (٥) الرجال جمع راجل وهو المشاة على رجله وقد ورد ذلك في قوله تعالى « وأذن في الناس بالحج بأتوك رجالا وعلى كل ضامر ، أى مشاة وراكبين » .

وأما الصديق فقد قال الله فيه وفي مثله (وَسَيَجْزِيهَا^(١)) الْآتِقِ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى) وقد ثبت في الصحاح عنه أنه قال ﷺ : «إن آمن الناس علينا في صحبتته وذات يده أبو بكر ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، فلم يكن في الصحابة أعظم منة من الصديق في نفسه وماله . وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجهه ربّه الأعلى لا يطلب جزاء من مخلوق فقال تعالى (وَسَيَجْزِيهَا^(١)) الْآتِقِ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى) فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى ، فانه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد ، والنبي ﷺ كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم وتلك النعمة لا تجزى ، فإن أجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) وأما على وزيد^(٢) وغيرهما فإن النبي ﷺ كان له عندهم نعمة تجزى ، فإن زيد أكان مولاه فاعتقه . قال تعالى (وَلِذَاقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) وعلى كان في عيال النبي ﷺ لجذب أصاب أهل مكة فاراد النبي ﷺ والعباس التخفيف عن أبي طالب من عياله ، فاخذ النبي ﷺ علياً إلى عياله وأخذ العباس جعفرأ إلى عياله ، وهذا مبسوط في موضع آخر ، والمقصود هنا أن الصديق كان أمن الناس في صحبتته وذات يده لأفضل الخلق رسول الله ﷺ ، لسكونه كان ينفق ماله في سبيل الله كاشترائه المعذنين^(٣) . ولم يكن النبي ﷺ محتاجاً في خاصة نفسه لا إلى أبي بكر ولاغيره بل لما قال له في سفر الهجرة . إن عندي راحلتين نخذ إحداهما ، قال النبي ﷺ «بالتن» فهو أفضل صديق لأفضل نبي ، وكان من كاله أنه لا يعمل ما يعمل إلا ابتغاء وجهه ربّه الأعلى لا يطلب جزاء من أحد من الخلق لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم .

(١) الهاء في سيجزىها . للنار التي تقدم ذكرها في قوله تعالى «فانذرتكم نارا تلظى لا يصليها الا الاشقي الذي كذب وتولى وسيجزىها الآتي الذي» الآية من سورة «الليل»
(٢) هو زيد بن ثابت حب رسول الله ﷺ وكان عبدا له فاعتقه
(٣) لما عذب المشركون عبيدهم من المسلمين كان أبو بكر رضي الله عنه يشتريهم ويعتقهم ويخلصهم من سيطرة المشركين .

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء ، قال تعالى عن أثني عليهم ^(١) (إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) والدعاء جزاء كما في الحديث : من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فان لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تلبوا أن قد كافأتموه ، وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول : اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا وبقى أجرنا على الله . وقال بعض السلف إذا قال لك السائل : بارك الله فيك ، فقل وفيك بارك الله ، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلاً صالحاً أو ملكاً من الملوك أو غنياً من الأغنياء فهذا العامل للخير مأمور بان يفعل ذلك خالصاً لله يبتغي به وجه الله ، لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره ، لا من نبي ولا رجل صالح ولا ملك من الملائكة ، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين .

وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد ديناً غيره ، قال تعالى (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وكان نوح وإبراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء عليهم السلام على الإسلام قال نوح (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ^(٢) وقال عن إبراهيم (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وقال موسى (يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) وقالت السحرة

(١) هذه الآية وغيرها من سورة الدهر في مدح الابرار وأوصافهم التي ذكرها الله تعالى بقوله : يوفون بالندى ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً إنما نطعمكم ، الآية أى يطعمونهم قائلين لهم إنما نطعمكم لوجه الله لا لجزاء أو شكر منكم أو من غيركم .

(٢) تمام هذه الآية (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) من سورة يونس وقبلها (وَاْتلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ) الآية .

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ) وقال يوسف (تَوَقَّيْ مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي
بِالصَّالِحِينَ) ، وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا) وقال عن الحواريين (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا
بِىَ وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

ودين الإسلام مبنى على أصليين . أن نعبد الله وحده لا شريك له وأن نعبد بهما
شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو أمر استحباب ، فيعبد فى كل
زمان بما أمر به فى ذلك الزمان . فلهذا كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها
مسلمين وكذلك شريعة الإنجيل .

وكذلك فى أول الإسلام لما كان النبى ﷺ يصلى إلى بيت المقدس كانت صلته
إليه من الإسلام ، ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام ،
والعدول عنها إلى الصخرة خروجاً عن دين الإسلام ، فكل من لم يعبد الله بعد مبعث
محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم . ولا بد فى جميع الواجبات
والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين كما قال تعالى (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) وقال تعالى (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ
مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ
الدِّينُ الْخَالِصُ) فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة كالإيمان بالله ورسوله
والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال
هو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين ، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء لا دعاء
ولا غير دعاء ، فهذا بما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء لا دعاء ولا غيره .

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب إلا فى بعض المواضع ،
ويكون المستول مأموراً بالأعطاء قبل السؤال ، وإذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين
بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ . فانه أجل قدراً وأغنى بالله عن غيره ،

فان سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي من نوع الشرك ، ومفسدة إيداء المسئول وهي من نوع ظلم الخلق ، وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس ^(١) . فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة ، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله . وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعون به كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات ، وإن كان هو ينتفع بدعائهم له فهو أيضا ينتفع بما يأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة ، فانه ثبت عنه في الصحيح أنه قال : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومحمد ﷺ هو الداعي إلى ما تفعله أمته من الخيرات فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ولهذا لم تجر عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيء . وليس كذلك الأبوان فانه ليس كل ما يفعله الولد - للوالد مثل أجره ، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب ، كما قال في الحديث الصحيح : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له ، قال النبي ﷺ فيما يطلبه من أمته من الدعاء طلبه طلب أمر وترغيب ليس بطلب سؤال فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه فهذا أمر الله به في القرآن بقوله (صلوا عليه وسلموا تسليما) .

والاحاديث عنه في الصلاة والسلام معروفة . ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود كما ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت

(١) هذا إذا كان السائل غير محتاج ولا مضطر أما إذا كان محتاجا ومضطرا ليحفظ حياته من الهلاك فتغفر له هذه المفاسد وتقلب إلى مستحب أو واجب إذا تعين السؤال لحفظ الحياة ولا يجوز أن يترك المضطر السؤال تجنبيا لهذه المفاسد حتى يموت فإنه إن فعل ذلك كان آثما لتضييع حياته مع إمكانه حفظها وقد قال تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) .

عليه شفاعتي يوم القيامة ، وفي صحيح البخارى عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : من قال حين سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد . حلت له شفاعتي يوم القيامة ، فقد رغب المسلمين فى أن يسألوا الله له الوسيلة ، وبين أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا : فإن الجزاء من جنس العمل .

ومن هذا الباب الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ فى العمرة فأذن له ثم قال : لا ننسنا يا أخى من دعائك ، فطلب النبي ﷺ من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلى عليه ويسلم عليه وإن يستل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة ، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات ، فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان اليه . وهو ﷺ أيضا ينتمتع بتعليمهم الخير وأمرهم به ، وينتفع أيضا بالخير الذى يفعلونه من الاعمال الصالحة ومن دعائهم له . ومن هذا الباب قول القائل : إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لكم من صلاتي ؟ قال : ماشئت ، قال الربع ؟ قال : ماشئت وإن زدت فهو خير لك ، قال النصف ؟ قال : ماشئت وإن زدت فهو خير لك ، قال الثلثين ؟ قال : ماشئت وإن زدت فهو خير لك ، قال أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : إذا تسكنى همك ويغفر لك ذنبك ، رواه أحمد فى مسنده والترمذى وغيرهما ، وقد بسط الكلام عليه فى جواب المسائل البغدادية . فان هذا كان له دعاء يدعو به ، فاذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاء الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ، فانه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وهو لو دعا لأحاد المؤمنين لقاتل الملائكة ، آمين ولك بمثله ، فدعاؤه للنبي ﷺ أولى بذلك ومن قال لغيره من الناس : ادع لى أولنا وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضا بأمره ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير فهو مقتد بالنبي ﷺ مؤتم به ، ليس هذا من السؤال المرجوح . وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والاحسان اليه ، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤمنين به فى ذلك ، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذى تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله . وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجازم المشروع .

وأما سؤال الميت فليس بمشروع لا واجب ولا مستحب بل ولا مباح ، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة ، لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة ، والشرعية إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة ، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة بل يكون مفسدة راجحة ، وكلاهما غير مشروع .

فقد تبين أن ما فعله النبي ﷺ من طلب الدعاء من غيره هو من باب الاحسان إلى الناس الذي هو واجب أو مستحب ، وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم هو من باب الاحسان إلى الموتي الذي هو واجب أو مستحب ، فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق في الدنيا والآخرة ، والزكاة حق الخلق ، فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده ، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئا . ومن عبادته الاحسان إلى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وزيارة قبور المؤمنين ، فاستحوذ الشيطان على أتباعه فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق ، فانهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين موزنين ظالمين لمن يسألونه وكانوا ظالمين لأنفسهم فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة .

فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد . وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد ، فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ) وهذا أمر بمعالى الأخلاق وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها . وقد روى عنه ﷺ أنه قال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، رواه الحاكم في صحيحه وقد ثبت عنه في الصحيح ﷺ أنه قال : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وقال : اليد العليا هي المعطية واليد السفلى السائلة ، وهذا ثابت عنه في الصحيح . فإن الاحسان إلى عباد الله من إتيانهم بالسؤال والشحاذة لهم ؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه

والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الاشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله ؟ وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار إليه من فساد في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه ؟

فارسول ﷺ أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح أمور أصحابها في الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التي تفسد أمور أصحابها ، ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول ، قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) وقال تعالى (إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) وقال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنََّّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزل الله على رسوله الذي قال فيه (إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال تعالى (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقُ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى) قال ربِّ لم حشرتني أعْمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقد قال تعالى (المص) كتاب أنزل إليك فلا يسكن في صدرك حرج منه لتتذكر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون) وقد قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض وويل للكافرين من (٤ - التوسل والوسيلة)

عَذَابٍ شَدِيدٍ) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرَى
مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَلَإِنَّكَ لَنَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) .

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ بفعل ما أمر ، وترك
ما حظر ، وتصديقه فيما أخبر ، لا طريق إلى الله إلا ذلك . وهذا سبيل أولياء الله المتقين
وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين ، وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغي
والضلال ، وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا فقال تعالى (وَالْتَجِمَ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ
صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) وقد أمرنا الله
سبحانه أن نقول في صلاتنا (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وقد روى الترمذى وغيره عن عدى بن حاتم عن
النبي ﷺ أنه قال : اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون ، قال الترمذى حديث
صحيح . وقال سفيان بن عيينه : كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبهة من اليهود ،
ومن فسد من عبادنا ففيه شبهة من النصارى . وكان غير واحد من السلف يقول :
احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون . فمن عرف
الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال فيهم (اتَّبِعُوا النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَذَسُّونَ أَنْفُسَكُمْ
وَأَنْتُمْ تَبْتَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو^(١) والشرك
أشبه النصارى الذين قال الله فيهم (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا
أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) فالأول من
الغاوين والثاني من الضالين فان الغي الغي اتباع الهوى ، والضلال عدم الهدى . قال
تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَثِلُهُ كُمُثَلٌ

(١) الغلو الزيادة في الدين وإدخال ما ليس منه فيه جهلا أو إفسادا .

الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا
عَنْهَا غَافِلِينَ) ومن جمع الضلال والغى ففيه شبهة من هؤلاء وهؤلاء . نسأل الله أن
يهدينا وسائر إخواننا صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين
وحسن أولئك رفيقا .

فصل

إذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ الوسيلة والنوسل فيه إجمال واشتباه يجب أن
تعرف معانيه ويعطى كل ذي حق حقه ، فيعرف ماورد به الكتاب والسنة من ذلك
ومعناه ، وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك ، ويعرف ما أحدثه المحدثون
في هذا اللفظ ومعناه فإن كثيرا من اضطرب الناس في هذا الباب هو بسبب
ما وقع من الإجمال واشتراك في الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا
الباب فصل الخطاب .

فلفظ الوسيلة المذكور في القرآن في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) وفي قوله تعالى (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) أولئك (١) الَّذِينَ يَدْعُونَ يَلْتَمِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ
أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) فالوسيلة التي أمر

(١) الإشارة إلى (الذين زعمتم من دونه) في الآية السابقة المذكورة هنا ، ومعنى الآية
هؤلاء الذين تزعمونهم آلهة وتدعونهم من دون الله من الأنبياء والملائكة والصالحين يبتغون
إلى ربهم الوسيلة أى يطلبون ما يقربهم إلى ربهم ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، فأولى بهم
أن تبتغوا الوسيلة إلى ربكم بالإيمان به وبرسوله وبطاعته واجتناب معصيته كما يفعل الذين
تزعمونهم آلهة لا أن تدعواهم من دون الله . والآيات من سورة الإسراء .

الله أن تبتغي إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه هي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات . فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا . فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك . والثاني لفظ الوسيلة في الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبده من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد » ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة » ، وقوله « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة الثامنة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة ، وأبعثه مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد » ، حلت له الشفاعة » ، فهذه الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة وأخبر أنها لا تكون إلا لعبده من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد ، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لأن الجزاء من جنس العمل ، فلما دعوا للنبي صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعوا هو لهم ، فإن الشفاعة نوع من الدعاء كما قال إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا .

وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الأقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقد فيه الصلاح .

وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة . فاما المعنيان الأولان الصحيحان باتفاق العلماء فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته ، والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم ، فهذان جائزان بإجماع المسلمين ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : اللهم إنا كنا إذا أجد بنا توسلنا إليك ببيننا فنسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . أي بدعائه وشفاعته

وقوله تعالى (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) أى القربة إليه بطاعته ، وطاعة رسوله طاعته قال تعالى (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) فهذا التوسل الأول هو أصل الدين وهذا لا ينسكركه أحد من المسلمين . وأما التوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر فإنه توسل بدعائه لا بذاته ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس ، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس ، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس ، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته ، بخلاف التوسل الذى هو الإيمان به والطاعة له فإنه مشروع دائما .

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته ، و (الثالث) التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا هو الذى لم تكن الصحابة يفعلونه فى الاستسقاء ونحوه لافى حياته ولا بعد مماته ، لاعتد قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا فى شيء من الأدعية المشهورة بينهم وإنما ينقل شيء من ذلك فى أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى . وهذا هو الذى قال أبو حنيفة وأصحابه إنه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ولا بقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدورى فى كتابه الكبير فى الفقه المسمى بشرح الكرخى فى باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة . قال بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال : أبو حنيفة لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ^(١) وأكره أن يقول بمعاقد العزم من عرشك أو بحق خلقك . وهو قول أبي يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العزم من عرشه هو الله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . قال القدورى : المسئلة بخلقه لا تجوز لأنه لاحق للخالق فلا تجوز وفاقا . وهذا الذى قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسئل بمخلوق له معنيان : أحدهما هو موافق لسائر الأئمة الذين

(١) الضمير فى به يعود على الله أى لا يجوز لأحد أن يطلب من الله شيئا ويتوسل إليه بغير ذاته ، ومثل ذلك التوسل بالعمل الصالح الذى يحبه الله ويأمر به ويرضى عن فاعله .

يمنعون أن يقسم أحد بالخلق فانه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق لأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى ، وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والشمس وضحاها ، والنازعات غرقا ، والصفات صفا ، فان إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه ، بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقد صححه الترمذى وغيره . وفى لفظ « فقد كفر » وقد صححه الحاكم ، وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال « من كان حالفاً فليحلف بالله » وقال « لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » وفى الصحيحين عنه أنه قال « من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة أو بما يعتقد هو حرمة كالعرش والكرسى والسكبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي ﷺ والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين وأيمان السدق^(١) (؟) وسراويل الفتوة وغير ذلك لا ينعقد يمينه ولا كفارة فى الحلف بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبى حنيفة وأحد القولين فى مذهب الشافعى وأحمد وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك . وقيل هى مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح حتى قال عبيد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلى أن أحلف بغير الله صادقا . وذلك لأن الحلف بغير الله شرك والشرك أعظم من الكذب . وإنما نعرف النزاع فى الحلف بالأنبياء ، فعن أحمد فى الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان إحداهما لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبى حنيفة والشافعى . والثانية ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضى وأتباعه . وابن المنذر وافق هؤلاء . وقصر أكثر هؤلاء النزاع فى ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وعدى ابن عقيل هذا الحكم إلى سائر الأنبياء . وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وإن كان نبيا قول ضعيف فى الغاية بخلاف الأصول والنصوص ، فالإقسام به على الله والسؤال به بمعنى الإقسام هو من هذا الجنس .

(١) يظهر أن هذه السنين أصلها الصادق وإيمان الصدق وإيمان جمع يمين خرفت إلى السنين

وأما السؤال بالخلق إذا كانت فيه بآء السبب ليست بآء القسم - وبينهما (١) فرق - فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بإبرار القسم ، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره ، قال ذلك لما قال أنس بن النضر : أنكسر ثنية الربيع ؟ قال لا والذي بعثك بالحق لانكسر سنها . فقال : يا أنس كتاب الله القصاص فرضى القوم وعفوا فقال صلى الله عليه وسلم : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره ، وقال : رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره ، رواه مسلم وغيره ، وقال : ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر ، وهذا في الصحيحين وكذلك أنس ابن النضر (٢) والآخر من أفراد مسلم ، وقد روى في قوله : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره . أنه قال : منهم البراء بن مالك ، وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون : يا براء أقسم على ربك فيقسم على الله فتتزم الكفار فلما كانوا على قنطرة بالسوس (٣) قالوا : يا براء أقسم على ربك فقال : يارب أقسمت عليك لما منحتنا اكتافهم وجعلتني أول شهيد . فأبر الله قسمه فانزمت العدو واشتهد البراء بن مالك يومئذ . وهذا هو أخو أنس بن مالك قتل مائة رجل مبارزة غير من

(١) بآء السبب هي التي يكون ما بعدها سببا للاجابة ، وبآء القسم هي التي يكون مجرد ذكر ما بعدها موجبا لحصول ما أقسم عليه فإذا لم يفعل وجبت الكفارة ومثال بآء السبب أن يقول القائل اللهم بنيك وملائكتك افعل كذا وكذا أي أسألك بسبب إرسال نبيك وخاق ملائكتك التي تنزل على أنبيائك بالوحي وتصرف أمور الخلق بأمرك أن تعطيني كذا ، فهذا سؤال لا قسم ، هذا في جانب الله ، وفي جانب الخلق إذا سئل بالخلق كأن يقول أحد الناس لمن يسأله بأبيك أو بحياتك أي بسبب حرمة أبيك عندك وبسبب نعمة الحياة عليك أقض لي هذه المسألة ، وقد بين المؤلف أن النبي ﷺ أمر بإبرار القسم ، وأما بآء القسم فنالها أن يقول القائل بالله لأفعلن كذا فذكر لفظ الجلالة للتعظيم وتعلق الفعل على مجرد ذكر الاسم لأنه لعظمته يقتضى مجرد ذكره الفعل ، وفي جانب الخلق كأن يقول القائل وحياتك أبي لأفعلن كذا أو ورأس أبي أو ورحمة أبي وقبر أبي لأفعلن كذا ، يريد تعليق الفعل على مجرد ذكر هذه الأسماء كما يعلقه على مجرد ذكر الله ، فهذا لا ينمقد ولا كفارة في الحنث به وهو حرام أو مسكروه على الخلاف والأرجح أنه حرام لأن فيه إشراف غير الله مع الله في التعظيم والتبجيل . (٢) أي حديث أنس بن النضر (٣) اسم مدينة (٤) قوله أن تمنحنا أكتافهم أي تزمهم فيولوا الأدبار فتكون ظهورهم المسلمين .

شرك في دمه ، وحمل يوم مسيلة^(٤) على ترس ورعى به إلى الحديقة حتى فتح الباب .
والإقسام به على الغير ان يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا فان حنثه ولم ير قسمه
فالكفارة على الخالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء ، كما لو حلف على عبده أو
ولده أو صديقه ليفعلن شيئاً ولم يفعله فالكفارة على الخالف الحادث . وأما قوله سألتك
بالله أن تفعل كذا فهذا سؤال وليس بقسم ، وفي الحديث (من سألكم بالله فأعطوه)
ولا كفارة على هذا إذا لم يجب سؤاله والخلق كلهم يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم وإذا مسهم
الضر في البحر ضل من يدعون إلا إياه فلما نجاهم إلى البر أعرضوا وكان الإنسان كفوراً
وأما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون . فالسؤال كقول
السائل لله . أسألك بأن لك الحمد أنت الله المتان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال
والإكرام ، وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له
كفواً أحد ، وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته
أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك . فهذا سؤال الله تعالى باسمائه
وصفاته وليس ذلك إقسام عليه فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فغفرته ورحمته
من مقتضى اسمه الغفور الرحيم ، وعفوه من مقتضى اسمه العفو ، ولهذا لما قالت
عائشة للنبي ﷺ : إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول ؟ قال قولي : اللهم إنك عفوتح
العفو فاعف عني ، وهدايت وهدايت وهدايت من مقتضى اسمه الهادي ، وفي الأثر المنقول عن
أحمد بن حنبل أنه أمر رجلاً أن يقول : يادليل الحيارى دلني على طريق الصادقين
واجعلني من عبادك الصالحين . وجميع ما يفعله الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه
الرب ، ولهذا يقال في الدعاء : يارب يارب ، كما قال آدم (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ
تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقال نوح (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ

(٤) هو مسيلة الكذاب الذي ادعى النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم
وآلف بعض السجع يحاكي به القرآن ويدعى أنه ينزل عليه من السماء وقد حارب به المسلمون
وهزموه والترس هو الدرع التي يحمي به المحارب صدره من الحراب والسيوف حمل عليه
البراء وألقي في حديقة المسكان الذي احتوى فيه مسيلة وفتح الباب فدخل المسلمون

مَالِيسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقال إبراهيم (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ...) وكذلك سائر الأنبياء . وقد كره مالك وابن أبي عمران من أصحاب أبي حنيفة وغيرهما أن يقول الداعي يا سيدي وقالوا : قل كما قالت الأنبياء رب رب . واسمه الحى القيوم يجمع أصل معانى الأسماء والصفات كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع ولهذا كان النبى ﷺ يقوله إذا اجتهد فى الدعاء .

فإذا سئل المسئول بشئ والباء للسبب سئل بسبب يقتضى وجود المسئول فإذا قال : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض كان كونه محموداً منا أن بديع السموات والأرض يقتضى أن يمين على عبده السائل ، وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل ما يحمد عليه ، وحمد العبد له سبب لإجابة دعائه : ولهذا أمر المصلى أن يقول (سمع الله لمن حمده) أى استجاب الله دعاء من حمده فالسمع هنا بمعنى الإجابة والقبول كقوله ﷺ (أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع) أى لا يستجاب . ومنه قول الخليل فى آخر دعائه (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) ومنه قوله تعالى (وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ^(١)) وقوله (وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ) أى لم يأتك أولئك القوم ، ولهذا أمر المصلى أن يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله سبحانه . وقال النبى ﷺ لمن رآه يصلى ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال «عجل^(١) هذا» ثم دعاه فقال «إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل

(١) تمام هذه الآية «لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا خلالكم ييغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالمظالمين» من سورة براءة ، وقد وردت فى المناقير الذين لا يحبون الخروج مع النبى ﷺ للحرب ويستأذنون فى القعود وعدم النفر الى العدو ولا عذر لهم الا ما يتحلونه من الأكاذيب والأضاليل فيقول الله لرسوله لا تحزن على عدم خروجهم لأنهم لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً أى فساداً بتبغيض المؤمنين فى الحرب وإيقاع الفتنة بينهم وفيكم سماعون لهم أى مجيبون لقولهم عاملون بمقتضى قنهم (١) قوله ﷺ عجل هذا أمر بالصلى الذى لم يحمد الله فى صلاته بأن يتعجل حتى يفهمه

على النبي ﷺ وليدع بعد بما شاء ، أخرجه أبو داود والترمذى وصححه . وقال عبد الله بن مسعود : كنت أصلى والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه ثم دعوت لنفسى فقال النبي ﷺ : سل تعطه ، رواه الترمذى وحسنه ، فلفظ السمع يراد به إدراك الصوت ويراد به معرفة المعنى مع ذلك ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم . قال تعالى (وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ^(٢)) ثم قال (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ) على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم (لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) فذهبهم بأنهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به .

وإذا قال السائل لغيره : أسألك بالله فأنما سأله بإيمانه بالله وذلك سبب لاعطاء من سأله به فانه سبحانه يحب الإحسان إلى الخلق لاسيما إن كان المطلوب كف الظلم فانه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم وأمره أعظم الأسباب في حض الفاعل فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسيبه من أمر الله تعالى ، وقد جاء في حديث رواه أحمد في مسنده وابن ماجه عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه علم الخارج إلى الصلاة أن يقول في دعائه : واسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا فاني لم أخرج أشرا ^(٣) ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، فان كان هذا صحيحا فحق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يشيهم ، وهو حق أوجبه على نفسه لهم ، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذي جده له سببا لإجابة الدعاء كما في قوله تعالى (وَيَسْتَجِيبُ ^(٤)) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

الكيفية الصحيحة للصلاة ، وهذا منادى والتقدير : عجل يا هذا ،

(٢) تمام هذه الآية : إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله أن فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، من سورة : الأنفال ، فقد وصف الله الكفار بأنهم شر الدواب وبأنهم صم بكم وأنه لو علم فيهم خيرا لاسمعهم أى لجعلهم يفهمون فالسمع هنا معناه الفهم ولو أفهمهم لتولوا وأعرضوا عن الحق بعد فهمه لأن طبيعتهم تألف الضلال وتآبى الهدى وتجادل في الله بغير علم ، وتحب البقاء على ما كان عليه الآباء والأجداد . (٣) الأشر بوزن جمل البطر وهو كفران النعم وعدم الشكر عليها . (٤) قبل هذه الآية قوله تعالى : وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا ، الآية أى يجيبهم إلى ما طلبوا لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات والآيتان من سورة : الشورى ،

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) وكما يسئل بوعده لأن وعده يقتضى إنجاز ما وعده ومنه قول المؤمنين (رَبَّنَا إِنَّا أَسْمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقوله (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّى أَنْسُوكُمْ ذِكْرِي ^(١)) ويشبه هذا مناشدة النبي ﷺ يوم بدر حيث يقول ، اللهم أنجز لى ما وعدتني ، وكذلك ما فى التوراة أن الله تعالى غضب على بنى إسرائيل فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ما وعده به إبراهيم فإنه سأل به سابق وعده لإبراهيم .

ومن السؤال بالأعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أووا ^(٢) إلى غار فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه محبة تقتضى إجابة صاحبه : هذا سأل ببره لوالديه ، وهذا سأل بعفته التامة ، وهذا سأل بأمانته وإحسانه

(١) الآية من سورة المؤمنين ،

(٢) هذا إشارة إلى حديث ورد فى الصحيحين فى الموعظة عن جماعة الجاهم المطر الى غار فناموا فلما أصبحوا وجدوا صخرة عظيمة قد سدت مدخل الغار ، فتشاوروا ماذا يفعلون فاهتدوا إلى أن يدعوا الله ويتوسلوا اليه بأعمالهم الصالحة حتى يزيع هذه الصخرة ، فأما أولهم فكان برا بوالديه حتى إنه فى ليلة حمل لهما عشاءهما فرجدهما قد ناما ففكره أن يوقظهما فوقف حاملا له طول الليل حتى أصبحا فأكلوا ، وأما الثانى فكان يحب قريبة له فراودها عن نفسها فأبى ثم حدثت بجماعة فأتت إليه قابلة ما كان عرضة عليها سابقا لتأخذ منه بعض المال ، فلما تهيأت لقضاء ما ربه ذكر الله فخشيه فأعطاهما ما أرادت وترك حاجة نفسه مهابة من الله أن يستغل حاجتها فى وضع شهوته ويضيع ثوابه عند الله برد اهفتها وإشباع جوعتها ، وأما الثالث فكان مدينا بدين ولم يجد صاحبه حتى يدفعه له فاشتري به غنما ورعاها وتعهدها حتى تناسلت وكثرت كثرة يطمع فيها مريد الدنيا ولكن أمانة هذا الرجل وحبه لله وإثاره له على الدنيا جعله يدفع هذه القطعان كلها الى صاحب الدين قائلا له خذ هذا فهو مالك . فقال كل منهم اللهم ان كنت فعلت كذا لوجهك فازل هذه الصخرة من طريقنا ، فلما دعا الأول ازاح جزء منها قليل لا يسمح بخروجهم ، ثم لما دعا الثانى ازاح جزء آخر ولكنهم لا يستطيعون الخروج ، فلما دعا الثالث ازاحت جميعها فخرجوا يحمدون الله على نجاحهم بأعمالهم الصالحة .

وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر : اللهم أمرتني فأطعتك ودعوتني فأجبتك وهذا سحر فاغفر لي ، ومنه حديث ابن عمر أنه كان يقول على الصفا : اللهم إنك قلت وقولك الحق (ادعوني أستجب لكم) وإنك لا تخلف الميعاد ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله على الصفا .

وقد تبين أن قول القائل . أسألك بكذا نوعان فإن الباء قد تكون للقسم وقد تكون للسبب ، فقد تكون قسما به على الله وقد تكون سؤالا بسببه . فاما الأول فالقسم بالخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق ؟ وأما الثاني وهو السؤال المعظم كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع وقد تقدم عن أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ذلك فنقول : قول السائل لله تعالى : أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بحاه فلان أو بحرمة فلان ، يقتضى أن هؤلاء لهم عند الله جاه ، وهذا صحيح فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضى أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفّعوا ، مع أنه سبحانه قال (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) ويقتضى أيضا أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيدا ، ومن أطاع أمرهم الذى بلغوه عن الله كان سعيدا ، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضى إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك بل جاههم ينفعه أيضا إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله أو ناسى بهم فيما سنوه للؤمنين ، وينفعه أيضا إذا دعوا له وشفّعوا فيه . فاما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعاة ولا منه سبب يقتضى الإجابة لم يكن متشفعا بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعا له عند الله ، بل يكون قد سأل بامر أجنبي عنه ليس سببا لنفعه : ولو قال الرجل لمطاع كبير : أسألك بطاعة فلان لك وبحبك له على طاعتك وبجاهه عندك الذى أوجبه طاعته لك . قد سأل^(١) بامر أجنبي لا تعلق له به ، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبتهم لهم وتعظيمهم لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس فى ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم ، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم ، أو سبب منهم

(١) هذا جواب ، ولو قال ، والظاهر أنه سقط منه كلمة ، ولعل الأصل : و لكن قد

سأله ، الخ (ر) .

لشفاعتهم له ، فاذا انتفى هذا وهذا فلا سبب .

نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ومحبه له وطاعته له واتباعه له لكان قد سأل به سبب عظيم يقتضى إجابة الدعاء بل هذا أعظم الأسباب والوسائل ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين أن شفاعته فى الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك وهى مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما فى الصحيح أنه قال : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرة ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى الجنة لا تنبغى لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ذلك العبد فن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة ، وفى الصحيح أن أبا هريرة قال له : أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال (من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه) فبين صلى الله عليه وسلم أن أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيدا وإخلاصا لأن التوحيد جماع الدين والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا باذنه فاذا شفع محمد صلى الله عليه وسلم لى له ربه حدا فيدخلهم الجنة وذلك بحسب ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان وذكر صلى الله عليه وسلم أنه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة فبين أن شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والإيمان والدعاء الذى سن لنا أن ندعو له به .

وأما السؤال بحق فلان فهو مبنى على أصليين : أحدهما ماله من الحق عند الله ، والثانى هل نسال الله بذلك كما نسال بالجاه والحرمة ؟ أما الأول فن الناس من يقول للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل ، وقاس المخلوق على الخالق ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم ، ومن الناس من يقول : لاحق للمخلوق على الخالق بحال لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره ، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعري وغيرهما ممن ينتسب إلى السنة ، ومنهم من يقول : بل كتب الله على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه حقا لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه ، لم يوجب ذلك لمخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته ، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم . كما قال فى الحديث الصحيح الإلهى : يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . وقال تعالى (كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةِ (وقال تعالى (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) وفي الصحيحين عن معاذ عن النبي ﷺ أنه قال : يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال : حقهم عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، يا معاذ ! أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم ، فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجب على نفسه مع إخباره ، وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه ، وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه .

فمن قال ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به - كما روى أن الله تعالى قال لداود وأى حق لا بآئك على ؟ صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله سبحانه حقاً بعبادتهم . وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعليه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه : ألم أفعل كذا ؟ يمين عليه بما يفعله معه ، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه . وتخيل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الانسان وظلمه ، ولهذا بين سبحانه أن عمل الانسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما في قوله تعالى (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) وقوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) وقوله تعالى (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) وقوله تعالى (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) وقال تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) وقد بين سبحانه أنه المانُّ بالعمل فقال تعالى (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ

أَسْلُبُوا قُلُوبَكُمْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (وقل تعالى) وَاَعْلَمُوا أَنْ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ، فَضَلَّ اللَّهُ مِنْ نِعْمَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (وفي الحديث الصحيح الإلهي : يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوْنِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَتُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أَبَالِي فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرُكُمْ وَلَانِسْكُمْ وَرَجْسُكُمْ كَانُوا عَلَى أَجْرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرُكُمْ وَلَانِسْكُمْ وَرَجْسُكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَ وَآخِرُكُمْ وَلَانِسْكُمْ وَرَجْسُكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ بِمَا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ ^(١) إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ ،

وبين الخالق والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة . (منها) : أن الرب تعالى غنى بنفسه عما سواه ويمتنع أن يكون مفتقر آ إلى غيره بوجه من الوجوه ، والملك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية . (ومنها) أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح بتوبة التائبين فهو الذي يخلق ذلك وييسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشئته . وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقولون بأن الله هو المنعم على عباده بالإيمان بخلاف القدرية والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره ، (ومنها) أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم كما قال قتادة : إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلاف عليهم بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم . يخالف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه وينهاه عما ينهاه بخلاف عليه . وهذا أيضا ظاهر على مذهب السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون : إنه لم يأمر العباد إلا بخير ينفعهم

(١) الخيط هو الإبرة التي يخاط بها ، فإذا وضعت الإبرة في البحر ثم أخرجت منه هل تنقص شيئا ؟ كلا ، فكذلك لا ينقص ما عند الله بإعطاء كل إنسان ما يصبه

ولم ينهمم إلا عن شر يضرهم بخلاف المجبرة الذين يقولون إنه قد يأمرهم بما يضرهم
وبينهم عما ينفعهم . (ومنها) أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب
وهو المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك بما يحصل العلم والعمل الصالح ، وهو الهادى
لعباده فلا حول ولا قوة إلا به . ولهذا قال أهل الجنة (الحمد لله الذى هدانا لهذا
وما كنا له ندى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) وليس يقدر المخلوق
على شيء من ذلك ، (ومنها) أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى فلو قدر أن العبادة
جزاء النعمة لم نقم العبادة بشكر قليل منها فكيف والعبادة من نعمته أيضا ، (ومنها)
أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته فلن يدخل أحد الجنة بعمله
وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله لها (وَلَوْ يَوَّاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا
كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ) وقوله ﷺ : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ،
لا يناقض قوله تعالى (جَزَاءُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فإن المنفى نفي بقاء المقابلة والمعاوضة كما
يقال بعث هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بقاء السبب فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان
سبباً للجزاء ، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى
وعفوه فهو ضال كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : لن يدخل أحد الجنة
بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل
وروى « بمغفرته » ، ومن هذا أيضا الحديث الذى فى السنن عن النبي ﷺ أنه قال :
« إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم . ولو رحمهم لكانت
رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث .

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذى أخبر الله
بوقوعه فإن الله صادق لا يخلف الميعاد وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله
ورحمته ، وهذا المستحق لهذا الحق إذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى لإنجاز وعده
أو يسأله بالأسباب التى علق الله بها المشيئات ^(١) كالأعمال الصالحة فهذا مناسب . وأما
غير المستحق لهذا الحق إذا سأله بحق ذلك الشخص فهو كما لو سأله بجاء ذلك الشخص ؛

(١) هذه اللفظة محرقة عن لفظة « المسببات » كما يدل على ذلك سياق الكلام وقد وردت

وذلك سؤال بأمر أجنى عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه ، وأما سؤال الله بأسمائه وصفاته التي تقتضى ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق والنصر فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به . فقول المنازع : لا يسأل بحق الأنبياء فإنه لاحق للمخلوق على الخالق ممنوع . فإنه قد ثبت في الصحيحين حديث معاذ الذى تقدم إirاده ، وقال تعالى (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ • وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

فيقال للمنازع : الكلام فى هذا فى مقامين : أحدهما فى حق العباد على الله ، والثانى فى سؤاله بذلك الحق ، أما الأول فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد قال الله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا • وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ • وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ يَخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ) فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين . وتنازعوا . هل عليه واجب بدون ذلك ؟ على ثلاثة أقوال كما تقدم - قيل : لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك ، وقيل : بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عبادته ، وقيل : هو أوجب على نفسه وحرّم على نفسه فيجب عليه ما أوجبه على نفسه ويحرم عليه ما حرّمه على نفسه كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى ذر كما تقدم . والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين ، لكن تنازعوا فى الظلم الذى لا يقع فقيل : هو الممتنع ^(١) وكل ممكن يمكن أن يفعله لا يكون ظلماً لأن الظلم إما التصرف فى ملك الغير وإما مخالفة الأمر الذى يجب عليه طاعته وكلاهما ممتنع منه ، وقيل : بل ما كان ظلماً من العباد فهو ظلم منه ، وقيل : الظلم وضع الشيء فى غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) قال المفسرون : هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه ، والهضم أن يهضم من حسناته . وقال تعالى (إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) . (وما ظلمناهم وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) ^(٢) .

(١) أى الحال الذى لا تتعلق به قدرته تعالى (ر)

(٢) تمام هذه الآية (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فاغنت آلهتهم التى يدعون) (ه - التوسل والوسيلة)

وأما المقام الثاني فإنه يقال : ما بين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو حق لكن الكلام في السؤال بذلك ، فيقال : إن كان الحق الذي سأل به سببا لإجابة السؤال حسن السؤال به كالحق الذي يجب له أبديا وسائلي ، وأما إذا قال السائل : بحق فلان وفلان فأولئك إذا كان لهم عند الله حق أن لا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم - كما وعدهم بذلك وأوجبته على نفسه - فليس في استحقاق أولئك ما يستحقونه من كرامة الله ما يكون سببا لمطلوب هذا السائل ، فإن ذلك استحق ما استحقه بما يسره الله له من الإيمان والطاعة . وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك ، فليس في إكرام الله لذلك سبب يقتضى إجابة^(٣) هذا . وإن قال : السبب هو شفاعة ودعاؤه ، فهذا حق إذا كان قد شفع له ودعا له ، وإن لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سبب . وإن قال : السبب هو محبتي له وإيماني به وموالاتي له ، فهذا سبب شرعي وهو سؤال الله وتوسل إليه بإيمان هذا السائل ومحبة الله ووسوله وطاعته لله ورسوله لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله . فمن أحب مخلوقا كما يحب الخالق فقد جعله ندا لله وهذه المحبة تضره ولا تنفعه ، وأما من كان الله تعالى أحب إليه مما سواه وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له فحبه لله تعالى هو أنفع الأشياء ، والفرق بين هذين من أعظم الأمور .

فإن قيل : إذا كان التوسل بالإيمان به ومحبة وطاعته على وجهين : تارة يتوسل بذلك إلى ثوابه وجنته - وهذا أعظم الوسائل - وتارة يتوسل بذلك في الدعاء كما ذكرتم نظائره ، فيحمل قول القائل : أسألك بنبيك محمد ، على أنه أراد : إني أسألك

من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيه) وهي من سورة هود وسيقت لبيان أن الله لما أخذ القرى الظالمة لم يظلم أهلها وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان به وتكذيب رسله ، وصنيع المؤلف في الأصل يشعر بأنها في الترتيب بعد قوله تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئا) التي سبقتها ولكن هذه هي الأخيرة في كلامنا والسابقة في كلامه من سورة النساء .

(٣) يريد الشيخ ابن تيمية ؛ أن من استحق من العباد ثوابا على عمله إنما ينفعه هو فقط ولا ينفع غيره إذا سأل لغير الله بسببه لأن الله يجزي كل نفس ما كسبت إلا أن يكون صاحب العمل الصالح قد دعا لغيره أو شفع له .

بإيماني به وبمحبتته ، وأتوسل اليك بإيماني به ومحبتته ، ونحو ذلك ، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع . قيل : من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع وإذا حمل على هذا المعنى لكلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسنا . وحينئذ فلا يكون في المسئلة نزاع ، ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى ، فهو لاء الذين أنكر عليهم من أنكر ، وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع ، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ .

فان قيل : فقد يقول الرجل لغيره بحق الرحم ، قيل : الرحم توجب على صاحبها حقا لذى الرحم كما قال الله تعالى (وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) وقال النبي ﷺ : الرحم شجنة (١) من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعها الله ، وقال : لما خلق الله الرحم تعلقت بحقوى (٢) الرحمن وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قد رضيت ، وقال ﷺ : يقول الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بئسته (٣) ، وقد روى عن علي أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أبيه أعطاه لحق جعفر على علي . وحق ذى الرحم باق بعد موته كما في الحديث أن رجلا قال : يا رسول الله ! هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ! الدعاء لها والاستغفار لها ، وانفاذ وعدهما من بعهما ، وصلة رحمك التي لا رحم لك إلا من قبلهما ، وفي الحديث الآخر حديث ابن عمر : من أبر^٤ البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي (٤) ، فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره .

(١) الشجنة بتشديد الشين الشعبة من كل شيء ، أي أن الرحم شعبة من الرحمن كأنها حزم منه أي من اسمه ، يدل على ذلك الحديث الآخر أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمي اسمي (٢) الحقوان ثنية حقو وهو الخاصرة أي ما لان من الجنب .
(٣) بئسته أي قطعته . (٤) يولي أي يموت

والذى قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء من أنه لا يجوز أن يسأل الله تعالى بمخلوق لا بحق الأنبياء ولا غير ذلك يتضمن شيئين كما تقدم : أحدهما الإقسام على الله سبحانه وتعالى به ، وهذا منهي عنه عند جماهير العلماء كما تقدم ، كما ينهى طائفة من الناس ، ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود في دعاء كثير من الناس . لكن ما روى عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيف بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة إلا حديث الأعمى الذى عليه أن يقول : أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة .

وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه فإنه صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ، وهو طلب من النبي ﷺ الدعاء ، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول : اللهم شفّعه فيّ ، ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي ﷺ ، وكان ذلك بما يعد من آيات النبي ﷺ . ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي ﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله .

ودعا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار وقوله اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا ، يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته ، إذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس ، وساغ النزاع في السؤال بالأنبياء والصالحين دون الإقسام بهم لأن بين السؤال والإقسام فرقا ، فإن السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الإجابة ، والمقسم أعلى من هذا فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم ، والمقسم لا يقسم إلا على من يرى أنه يبر قسمه فإبرار القسم خاص ببعض العباد ، وأما إجابة السائلين فعامّة ، فإن الله يجب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلاً ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلاً ، قالوا : يا رسول الله أنك أكثر . قال : الله أكثر ، (٣) .

(١) أى من معجزاته وعلامات نبوته ورسالته . (٢) أى الله أكثر إجابة لدعائكم

وهذا التوسل بالأنبياء بمعنى السؤال بهم - وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم إنه لا يجوز - ليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك فضلا أن يجعل هذا من مسائل السبب ، فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوز التوسل به بمعنى الاقسام به أو السؤال به فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه فضلا عن أن يقول مالك : إن هذا سبب للرسول ، أو يقتصر به . بل المعروف عن مالك أنه كره للداعي أن يقول : يا سيدي ، وقال : قل كما قالت الأنبياء : يارب يارب يا كريم . وكره أيضا أن يقول : يا حنان يا منان . فانه ليس بمأثور عنه ، فاذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء إذا لم يكن مشروعا عنده فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبيا كان أو غيره وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق لاني ولا غيره ؟ بل قال عمر : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وإننا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . وكذلك ثبت في الصحيح عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا إذا أجدبوا انما يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستسقائه ، لم ينقل عن أحد منهم أنه كان في حياته صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى بمخلوق لابه ولا بغيره لافي الاستسقاء ولا غيره ، وحدث الأعمى سنتسكلم عليه إن شاء الله تعالى ، فلو كان السؤال به معروفا عند الصحابة لقالوا لعمر : ان السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس فلم نعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق الى أن نتوسل ببعض أقاربه ؟ وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الأفضل وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ، ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجذب ، والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجرشي كما توسل عمر بالعباس .

وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم : أنه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح ، قالوا وإن كان من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أفضل اقتداء بعمر . ولم يقل أحد من أهل العلم إنه يسأل الله تعالى في ذلك لابني ولا بغير نبي وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين - غير مالك - كالشافعي وأحمد وغيرهما فقد

كذب عليهم ، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند الى حكاية مكذوبة عن مالك ، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، ولكن من الناس من يحرف نقلها ، وأصلها ضعيف كما سنبينه ان شاء الله تعالى ، والقاضى عياض لم يذكرها في كتابه في باب زيارة قبره بل ذكر هناك ما هو المعروف عن مالك وأصحابه ، وإنما ذكرها في سياق أن حرمة النبي ﷺ بعد موته ونو قبره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته ، وذكر^(١) عند ذكره وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه . وذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السخيتاني فقال . ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه - قال - وحج حجتين فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه ، فلما رأيت منه ما رأيت واجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه ، وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه . فقل له يوما في ذلك فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ماترون - لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لانكاد نسأله عن حديث أبدا إلا يبكي حتى نرحمه ، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد - وكان كثير الدعاة والتبسم - فاذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه ، وما رأيت يتحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ، ولقد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصليا ، وإما صامتا ، وإما يقرأ القرآن ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله ، ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نرف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ ، ولقد كنت آتى عامر بن عبد الله بن الزبير فاذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع ، ولقد رأيت الزهرى - وكان لمن أهنأ الناس وأقربهم - فاذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته ، ولقد كنت آتى صفوان بن سليم وكان من المتعبدین المجتهدين فاذا ذكر النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه .

وهذا كله نقله القاضى عياض من كتب أصحاب مالك المعروفه ثم ذكر الحكاية بإسناد غير منقطع رواها عن غير واحد إجازة ، قالوا . حدثنا أبو العباس أحمد بن

(١) كذلك في الاصل والظاهر انه تحريف وان الصواب ، وذلك عند ذكره ، الخ

عمر بن دلهات قال حدثنا أبو الحسن علي بن فهر - ثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج
 ثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب - ثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل - ثنا ابن
 حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال
 له مالك يا أمير المؤمنين ! لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله أدب قوما فقال
 (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) ^(١) الآية ، ومدح قوما فقال (إِنَّ الَّذِينَ
 يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ) ^(٢) الآية ، وذم قوما فقال (إِنَّ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ
 مِنْ وَرَائِ الْحُجُرَاتِ) ^(٣) الآية ، وإن حرمة ميتا كحرمة حيا فاستكان لها أبو جعفر
 فقال يا أبا عبد الله ؛ أستقبل القبلة وأدعو ؛ أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟ فقال :
 ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أهلك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة
 بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ^(٤) ، قال الله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) .

قلت وهذه الحكاية منقطعة فان محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكا لا سيما في
 زمن أبي جعفر المنصور ، فان أبا جعفر توفي بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة وتوفي
 مالك سنة تسع وسبعين ومائة . وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين
 ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه ، وهو مع هذا
 ضعيف عند أكثر أهل الحديث ، كذبه أبو زرعة وابن وارة ، وقال صالح ابن محمد
 الأسدي : ما رأيت أحدا أجرا على الله منه وأحذق بالكذب منه . وقال يعقوب
 ابن شيبة (كثير المناكير) ^(٥) . وقال النسائي ليس بثقة . وقال ابن حبان ينفرده عن
 الثقات بالمقلوبات . وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفي سنة

(١) تمام هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
 بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

(٢) تمام هذه الآية (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
 قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (٣) تمام هذه الآية (أَكْثَرُهم لَا يَعْقِلُونَ) والآيات
 الثلاث من سورة الحجرات (٤) يشفعك أى يصلحك ويقربك من شفعه إذا وصله .

(٥) أى محمد بن حميد الرازي كثير المناكير أى الأحاديث المنكرة

اثنتين وأربعين ومائتين . وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد ابن إسماعيل السهمي توفي سنة تسع وخمسين ومائتين وفي الاسناد أيضا من لا تعرف حاله وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه ، ومحمد ابن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند^(٦) ، فكيف إذا أرسل^(٧) حكاية لا تعرف إلا من جهته ؟ هذا إن ثبت عنه ، وأصحاب مالك متفقون على أنه يمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه ، بل إذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم ومروان بن محمد الطاطري ضعفوا رواية هؤلاء ، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين ، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث ؟

مع أن قوله : وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة إنما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة ، وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة وهذا حق كما جاءت به الأحاديث الصحيحة حين تأتي الناس يوم القيامة آدم ليشفع لهم فيردمهم آدم إلى نوح ثم يردمهم نوح إلى إبراهيم وإبراهيم إلى موسى وموسى إلى عيسى ويردّمهم عيسى إلى محمد ﷺ فانه كما قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر آدم فن دونه تحت لواني يوم القيامة ولا نخر ، ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه - أحدها قوله أستقبل القبلة وأدعوا أستقبل رسول الله وأدعو ؟ فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . فان المعروف عن مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين أن الداعي إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد أن يدعو لنفسه فانه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، بل إنما يستقبل القبر عند السلام على النبي ﷺ والدعاء له - هذا قول أكثر العلماء كمالك في إحدى الروايتين والمصنفين وأحمد وغيرهم ، وعند أصحاب أبي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضا ، ثم منهم من قال يجعل الحجرة على يساره - وقد رواه ابن وهب عن مالك - ويسلم عليه ، ومنهم من قال بل يستدبر

(١) إذا أسند أي إذا روى مع ذكر السند بقوله عن فلان عن فلان إلى أن يصل إلى الرسول ﷺ (٢) أرسل أي روى بدون إسناد

الحجرة ويسلم عليه وهذا هو المشهور عندهم ، ومع هذا فكره مالك أن يطيل القيام عند القبر . لذلك قال القاضي عياض في المبسوط عن مالك قال : لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو ولكن يسلم ويمضي ، قال وقال نافع كان ابن عمر يسلم على القبر رأبته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول السلام على النبي ﷺ ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي . ثم ينصرف . ورئى واضعا يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه ، قال وعن ابن أبي قسيط والقعنبي كان أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد جلسوا برمانة المنبر التي تلتقي القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون قال وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثي أنه كان - يعني ابن عمر - يقف على قبر النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر ، قال مالك في رواية بن وهب : يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقال في المبسوط : ويسلم على أبي بكر وعمر . قال أبو الوليد الباجي : وعندي أن يدعو للنبي ﷺ بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر لما في حديث ابن عمر من الخلاف . وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور في رواية ابن وهب ، قال مالك في رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر . فهذا هو السلام عليه والدعاء له بالصلاة عليه كما تقدم تفسيره ، وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب في الواضحة وغيره قال : وقال مالك في المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضا : ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر قيل له : فإن ناساً^(١) من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر وربما وقفوا في الجمعة أو الأيام المرة والمرة أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال مالك لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع^(٢) ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده ، قال ابن القاسم :

(١) الاصل : فإن ناس ، وهو خطأ ظاهر (ر) (٢) واسع أى يسعنا تركه كما وسع الصحابة رضى الله عنهم تركه

ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا أتوا القبر فسلموا قال ولذلك رأى (١). قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم قال وقال رسول الله ﷺ اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، قال وقال النبي ﷺ لا تجعلوا قبري عيداً ، (٢) قال ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسسه ولا يقف عنده طويلاً ، وفي العتبية يعني عن مالك يبدأ بالركوع (٣) قبل السلام في مسجد النبي ﷺ وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي ﷺ حيث العمود المحاق ، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف قال والتنفل فيه للغرباء أحب إلى من التنفل في البيوت .

فهذا قول مالك وأصحابه وما نقلوه عن الصحابة يبين أنهم لم يقصدون (٤) القبر إلا للسلام على النبي ﷺ والدعاء له . وقد كره مالك إطالة القيام لذلك ، وكره أن يفعله أهل المدينة كلها دخلوا المسجد وخرجوا منه ، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له فانه تحية للنبي ﷺ ، فأما إذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فأنما يدعو في مسجده مستقبل القبلة كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي ﷺ ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر ، بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي ﷺ فكيف بدعائه لنفسه ؟

وأما دعاء الرسول وطلب الخوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعاً لفعله الصحابة والتابعون ، وكذلك السؤال به ، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته ؟ فدل ذلك على أن ما في الحكاية المنقطعة من قوله « استقبله واستشفع به » كذب على مالك

(١) يظهر أنه قد سقط من هذا الموضع كلام فلان فلان تركناه بياضاً (ر) (٢) أي لا تحتفلوا بزيارة قبري كما تحتفلون بالأعياد فيسكن كثير الاجتماع والنهيج وغير ذلك من الأعمال التي قد تسبب عدم الاخلاص في الزيارة وتبعد الزيارة عن الغرض المقصود وتدخل في النفوس بعض الشرك . (٣) يعني بالركوع للصلاة كتحية المسجد .

(٤) الظاهر أن أصل العبارة « لم يكونوا يقصدون القبر » الخ وإلا لقال ، يقصدوا بحذف النون ، أو أصل العبارة لا يقصدون فأبدل الناقل لا بلم ، (اه ر)

مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التي يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر الملأ إذ كان منهم من لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه فضلا عن أن يستقبله ويستشفع به يقول له يا رسول الله اشفع لي أو ادع لي ، أو يشتكي إليه المصائب الدين والدنيا^(١) أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له ، أو يشتكي إليهم المصائب فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة ، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ، ولا بما أمر به أحد من أئمة المسلمين ، وإن كانوا يسلمون عليه إذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويبغ^(٢) سلام البعيد .

وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذي رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد من حديث حيوة ابن شريح المصرى ، حدثنا أبو صخر عن يزيد بن قسيط عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أورد عليه السلام ، وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة في السلام عليه عند قبره صلوات الله وسلامه عليه ، فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين . ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئا منها ، وإنما يروونها من يروى الضعاف كالدارقطنى والبزار وغيرهما . وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمرى وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه ، مثل قوله : من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي ، فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين ، فإن من زاره في حياته وكان مؤمنا به كان من أصحابه لا سيما إن كان من المهاجرين إليه المجاهدين معه ، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال : لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه^(٣) .

(١) أى في الدين والدنيا فسقط لفظ في أو الأصل مصائب بالتنكير .

(٢) ويبغ سلام البعيد أى تبلغه الملائكة إياه كما سيأتى للؤلؤف .

(٣) المد بالوزن رطل وثلاث بالكيل ثلث الصاع والصاع مكبال كان أيام الرسول ﷺ

يعادل ربع الكيلة الموجوة الآن والنصيف بوزن رغيف نصف المد ، يقول الرسول ﷺ : لا تسبوا أصحابي ، فإن سبقهم إلى الإيمان جعل جزاءهم أضعافا مضاعفة ، فلو أنفق غير الصحابي مثل جبل أحد ذهبا في سبيل الله وأنفق الصحابي مدا في سبيل الله أو نصف مد كان

اخرجاه في الصحيحين . والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه ، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين ، بل ولا شرع السفر اليه ، بل هو منهي عنه . وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب ، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب ؛ فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا اليه في حياته فكيف بالسفر المنهي عنه ؟ وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين لم يكن عليه أن يوفى بنذره ، بل ينهى عن ذلك . ولو نذر السفر إلى مسجده والمسجد الأقصى للصلاة ففيه قولان للشافعي ، أظهرهما أنه يجب ذلك وهو مذهب مالك وأحمد . والثاني لا يجب وهو مذهب أبي حنيفة ، لأن من أصله أنه لا يجب من النذر إلا ما كان واجبا بالشرع ^(١) وإتسان هذين المسجدين ليس واجبا بالشرع فلا يجب بالنذر عنده وأما الآكثرون فيقولون هو طاعة الله ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

وأما السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم لأنه ليس بطاعة ، فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه ؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله ﷺ . واستعظمه . وقد قيل إن ذلك ككراهية زيارة القبور ، وقيل لأن الزائر أفضل من المزور ، وكلاهما ضعيف عند أصحاب مالك . والصحيح أن ذلك لأن لفظ زيارة القبر يحمل يدخل فيها الزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك ، فان زيارة قبور الأنبياء وسائر المؤمنين على وجهين كما تقدم ذكره : زيارة شرعية وزيارة بدعية ، فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء مد الصحابي أو نصفه أفضل من مثل جبل أحد ذهباً من غير الصحابي .

(١) دليل الأصل : ما كان جنسه واجبا بالشرع فهو المذهب ولا معنى لایجاب الواجب (أهر) فيكون وجوبه بالنذر غير وجوبه بالشرع فلا يجتمع إيجابان على موجب واحد ، فلو نذر أن يحج كان عليه حج غير حج الإسلام الواجب ولو نذر أن يصلي كان عليه صلاة غير الصلاة الواجبة ، وهكذا .

لهم كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصل على صلاة الجنائز هذه الزيارة الشرعية . والثاني أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتي وطلب الحاجات منهم ، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت ، أو أن الأقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضى إجابة الدعاء ، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها . فإذا كان لفظ الزيارة بمجمله لا يحتمل حقا وباطلا عدل عنه إلى لفظ لابس فيه كلفظ السلام عليه ، ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روى في زيارة قبره أو زيارته بعد موته ، فإن هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة ، لا يحتج بشيء منها في أحكام الشريعة .

والثابت عنه عليه السلام أنه قال « ما بين يتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، هذا هو الثابت في الصحيح ، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال « قبري ، وهو عليه السلام حين قال هذا القول لم يكن قد قبر بعد صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة ، إنما تنازعوا في موضع دفنه ولو كان هذا عندهم لكان نصا في محل النزاع ، ولكن دفن في حجرة عائشة في الموضع الذي مات فيه ، بابي (٣) هو وأمي صلوات الله عليه وسلامه ، ثم لما وسع المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان نائبه على المدينة عمر بن عبد العزيز أمره أن يشتري الحجر (٢) ويزيدها في المسجد ، وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فريدت في المسجد ودخلت حجرة عائشة في المسجد من حينئذ ، وبنوا الحائط البراني مسنحرفا ، فانه ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أنه قال عليه السلام « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها ، لأن ذلك يشبه السجود لها وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله تعالى ، كما نهى عن اتخاذها مساجد (٣) نهى عن قصد الصلاة عندها ، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له . فمن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس الحرام الذي سد الله ورسوله ذريعته ، وهذا بخلاف السلام المشروع حسبا تقدم .

وقد روى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن

(١) أي أفديه بأبي وأمي وهذا من كلام الامام أحمد بن حنبل .

(٢) أي حجر نسائه عليه السلام التي كانت بجوار المسجد (٣) أهل أصله « ونهى » (د)

مسموع قال قال رسول الله ﷺ ، إن الله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن
عن أمتي السلام ، رواه النسائي وأبو حاتم في صحيحه وروى نحوه عن أبي هريرة .
فهذا فيه أن سلام البعيد تبلغه الملائكة . وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو الأشعث
الصنعاني عن أوس بن أوس قال قال رسول الله ﷺ ، أكثروا على من الصلاة في
كل يوم جمعة فإن صلاة أمتي تعرض على يومئذ فمن كان أكثرهم على صلاة كان
أقربهم مني منزلة ، وفي مسند الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن نافع عن
ابن أبي ذئب عن المفبري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ، لا تتخذوا قبوري
عيدا ولا تجعلوا بيوتكم قبورا وصلوا على حينما كنتم فان صلاتكم تبلغني ، ورواه
أبوداود . قال القاضي عياض : وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة قال قال
رسول الله ﷺ ، من صلى على عند قبوري سمعته . ومن صلى على نائبا^(١) أبلغته ، .
وهذا قد رواه محمد بن مروان السدي عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي صالح عن
أبي هريرة . وهذا هو السدي الصغير وليس بثقة ، وليس هذا من حديث الأعمش
وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده عن موسى بن محمد بن حبان عن أبي بكر الحنفي :
حدثنا عبد الله بن نافع ، حدثنا العلام بن عبد الرحمن ، سمعت الحسن بن علي قال :
قال رسول الله ﷺ ، صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا ولا تتخذوا بيوتكم عيدا
وصلوا على وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم يبلغني ، وروى سعيد بن منصور في سننه
أن عبد الله بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب رأى رجلا يكثر الاختلاف إلى
قبر النبي ﷺ قال له : يا هذا ! إن رسول الله ﷺ قال ، لا تتخذوا قبوري عيدا وصلوا
لي حينما كنتم فان صلاتكم تبلغني ، فما أنت ورجل بالاندلس منه إلا سواء . وروى
هذا المعنى عن علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن علي بن أبي طالب ، ذكره
أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ في مختاره الذي هو أصح من صحيح
الحاكم . وذكر القاضي عياض عن الحسن بن علي قال : إذا دخلت فسلم على النبي ﷺ
فان رسول الله ﷺ قال ، لا تتخذوا بيوتكم عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا على
حيث كنتم فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم ، .

(١) نائبا أي بعيدا .

ومما يوهن هذه الحكاية أنه قال فيها « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة ، إنما يدل على أنه يوم القيامة تتوسل الناس بشفاعته . وهذا حق كما تواترت به الأحاديث ، لكن إذا كان الناس يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيامة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته في حياته ، فأنما ذاك طلب لدعائه وشفاعته ، فنظير هذا لو كانت الحكاية صحيحة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة في الدنيا عند قبره ، ومعلوم أن هذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا سنه لأمته ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحسنة أحد من أئمة المسلمين لا مالك ولا غيره من الأئمة ، فكيف يجوز أن ينسب إلى مالك مثل هذا الكلام الذي لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية ولا الأحكام المعلومة أدلتها الشرعية مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وإمامته ، وتسام رغبته في اتباع السنة وذم البدع وأهلها ؟ وهل يأمر بهذا أو يشرعه إلا مبتدع ؟ فلو لم يكن عن مالك قول يناقض هذا لعلم أنه لا يقول مثل هذا .

ثم قال في الحكاية « استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، والاستشفاع به معناه في اللغة أن يطلب منه الشفاععة كما يستشفع الناس به يوم القيامة ، وكما كان أصحابه يستشفعون به . ومنه الحديث الذي في السنن أن أعرابيا قال : يا رسول الله ! جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا فانا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله . فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال « وبحك أندري ما تقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه ، وذكر تمام الحديث فأنكر قوله : نستشفع بالله عليك ومعلوم أنه لا ينكر أن يسأل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله ، وإنما أنكر أن يكون الله شافعا إلى المخلوق ، ولهذا لم ينكر قوله نستشفع بك على الله فانه هو الشافع المشفع .

وهم - لو كانت الحكاية صحيحة - إنما يجيئون إليه لأجل طلب شفاعته ﷺ ولهذا قال في تمام الحكاية (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ) الآية ، وهؤلاء إذا شرع لهم أن يطلبوا منه الشفاععة والاستغفار بعد موته ، فاذا أجابهم فانه يستغفر لهم ، واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعته أن يغفر الله لهم ، وإذا كان الاستشفاع منه

طلب شفاعته فانما يقال في ذلك : استشفع به فيشفعه الله فيك ، لا يقال : فيشفعك الله فيه . وهذا معروف الكلام ولغة النبي ﷺ وأصحابه وسائر العلماء ، يقال : شفّع فلان في فلان فشفّع فيه . فالمشفّع الذي يشفعه المشفوع اليه هو الشفيع المستشفع به ، لا السائل الطالب من غيره أن يشفع له ، فان هذا ليس هو الذي شفّع ، فحمد ﷺ هو الشفيع المشفع ، ليس المشفع الذي يستشفع به . ولهذا يقول في دعائه : يارب شفّعني ، فيشفعه الله ، فيطلب من الله سبحانه أن يشفعه لا أن يشفع طالبي شفاعته ، فكيف يقول : واستشفع به فيشفعك الله ؟

وأيضا فان طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعا عند أحد من أئمة المسلمين ، ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين : ذكروا حكاية عن النبي أنه رأى أعرابيا أتى قبره وقرأ هذه الآية وأنه رأى في المنام أن الله غفر له . وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين الذين بقى الناس بأقوالهم ، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلا شرعيا . ومعلوم أنه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعا لسكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك وأسبق إليه من غيرهم ، ولسكان أئمة المسلمين يذكرون ذلك ، وما أحسن ما قال مالك (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) قال ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك . فمثل هذا الإمام كيف يشرع ديناً لم ينقل عن أحد السلف ويأمر الأمة أن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار بعد موت الأنبياء والصالحين منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الأمة ؟

ولكن هذا اللفظ الذي في الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعاة في معنى التوسل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان أي نتوسل به . ويقولون لمن توسل في دعائه بنبي أو غيره : قد تشفع به ، من غير أن يكون المستشفع به شفّع له ولا دعا له ، بل وقد يكون غائبا لم يسمع كلامه ولا شفّع له ، وهذا ليس هو لغة النبي ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة ، بل ولا هو لغة العرب ، فان الاستشفاع طلب الشفاعاة . والشافع هو الذي يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المستول المدعو المشفوع إليه . وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل

ولا طلب له حاجة بل وقد يعلم بسؤاله ، فليس هذا استشفاعا لا في اللغة ولا في كلام من يدري مايقول . نعم هذا سؤال به ودعاؤه ليس ليس هو استشفاعا به ، ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة كما غيروا الشريعة وسموا هذا استشفاعا أى سؤالاً بالشفاع صاروا يقولون : استشفع به فيشفعك ، أى يجيب سؤالك به ، وهذا مما يبين أن هذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغة ، وأين لفظها من لفظ مالك ؟ .

نعم قد يكون أصلها صحيحا ويكون مالك قد نهى عن رفع الصوت في مسجد الرسول اتباعاً للسنة كما كان عمر بنى عن رفع الصوت في مسجده ، ويكون مالك أمر بما أمر الله به من تعزيره وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك أن يأمر به . ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويتخاطبون بها النبي ﷺ وعادتهم في الكلام وإلا^(١) حرف الكلم عن مواضعه ، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قوم وعادتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريد به بذلك أهل عادته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك .

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامه وغيرهم ، وآخرون يتعمدون وضع ألفاظ الانبياء وأتباعهم على معاني آخر مخالفة لمعانيهم ثم ينطقون بتلك الألفاظ يريدون بها مايعنونه هم ويقولون : إنا موافقون للأنبياء وهذا موجود في كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والاسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة^(٢) والمتصوفة ، مثل من وضع المحدث والمخلوق والمصنوع على ما هو معلول وإن كان قديماً أزلياً ، ويسمى ذلك « الحدوث الذاتي » ، ثم يقول : نحن نقول إن العالم محدث . وهو مراده ، ومعلوم أن لفظ المحدث بهذا الاعتبار ليس لغة أحد من الأمم وإنما المحدث عندهم ما كان بعد أن لم يكن .

وكذلك يضعون لفظ الملائكة على ما يشبته من العقول والنفوس وقوى النفس ،

(١) يظهر أن لفظة « زائدة » ويكون نظم الكلام هكذا ، ومن لم يعرف لغة

الصحابة الخ حرف الكلام عن مواضعه فتكون جملة حرف خبر المبتدأ الذي هو من

(٢) المتكلمة علماء الكلام أى علم التوحيد الاصطلاحى فإنه يسمى علم الكلام

(٦ - التوسل والوسيلة)

ولفظ الجن والشیاطین علی بعض قوى النفس ، ثم یقولون . نحن ثبت ما أخبرت به الأنبياء وأقر به جمهور الناس من الملائكة والجن والشیاطین . ومن عرف مراد الأنبياء ومرادهم علم بالاضطرار أن هذا ليس هو ذاك ، مثل أن یعلم مرادهم بالعقل الاول وأنه مقارن عندهم لرب العالمین أزلا وأبدا ، وأنه مبسّغ لكل ما سواه ، أو بتوسطه حصل كل ما سواه . والعقل الفعال عندهم یصدر كل ما تحت فلك القمر ویعلم بالاضطرار من دین الأنبياء أنه ليس من الملائكة عندهم من هو رب كل ما سوى الله . ولا رب كل ما تحت فلك القمر ، ولا من هو قديم أزلی أبدی لم یزل ولا یزال ، ویعلم أن الحديث الذى یروی « أول ما خلق الله العقل » حديث باطل عن النبی ﷺ ، مع أنه لو كان حقا لكان حجة علیهم فان لفظه (أول ما خلق الله العقل) بنصب^(١) الاول علی الظرفية (فقال له أقبل فأقبل ثم قال : أدبر فأدبر ، فقال وعزى ما خلقت خلقا أكرم علی منك ، فبك آخذ وبك أعطى وبك الثواب وبك العقاب) وروى (لما خلق الله العقل) فالحديث لو كان ثابتا كان معناه أنه خاطب العقل فى أول أوقات خلقه ، وأنه خلق قبله غیره ، وأنه یحصل به هذه الامور الاربعة لاکل المصنوعات . والعقل فى لغة المسلمين مصدر : عقل یعقل عقلا . یراد به القوة التى بها یعقل ، وعلوم وأعمال تحصل بذلك لا یراد بها قط فى اللغة جوهر قائم بنفسه فلا یمكن أن یراد هذا المعنى بلفظ العقل ، مع أنا قد بینا فى مواضع آخر فساد ما ذکره من جهة العقل الصریح ، وأن ما ذکره من المجردات والمعارف ینتهى أمرهم فیهِ إلى إثبات النفس التى تفارق البدن ، وإلى إثبات ما تجرده النفس من المعقولات القائمة بها ، فهذا منتهى ما یثبتونه من الحق فى هذا الباب .

والمقصود هنا أن كثيراً من كلام الله ورسوله یتكلم به من یسلك مسلكهم أو یرید مرادهم لا مراد الله ورسوله ، كما یوجد فى كلام صاحب السکتب المضنون بها وغیره ، مثل ما ذكره فى اللوح المحفوظ حيث جعله النفس الفلكية ، ولفظ القلم حيث جعله العقل الاول ، ولفظ الملائکة والجبروت والملائکة حيث جعل ذلك عبارة عن النفس والعقل ، ولفظ الشفاعة حيث جعل ذلك فیضا یفیض من الشفیع علی المستشفع وإن

(١) فیکون الاول ظرف زمان أى فى وقت أول خلق العقل خاطبه

كان الشفيع قد لا يدري ، وسلك في هذه الأمور ونحوها مسالك ابن سيدنا كما قد بسط في موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول ﷺ فإنه في لغة الرسول التي جاء بها القرآن خلاف الحديث وإن كان مسبوقا بغيره كقوله تعالى (خَيَّ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)^(١) وقال تعالى عن إخوة يوسف (تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ)^(٢) وقوله تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ)^(٣) وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل . أو عما لم يسبقه وجود غيره إن لم يكن مسبوقا بعدم نفسه ويجهلونه إذا أريد به هذا من باب المجاز ، ولفظ الحديث في لغة القرآن تقابل لفظ القديم في القرآن الحديث وسائر لغة العرب إنما يراد به الجملة التسامة كقوله ﷺ ، كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبجمده سبحان الله العظيم ، وقوله ، إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ، ألا كل شيء ما خلا الله باطل ،^(٤) ومنه قوله تعالى (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)^(٥) وقوله تعالى (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

(١) تمام هذه الآية : والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، من سورة يس - والعرجون الشمر اخ من سباطة البلح إذا تقادم عليه الزمن يدق ويتقوس فيكون القمر في آخر منازلها صغيرا متقوسا كالعرجون القديم (٢) أى قال إخوة يوسف لأبيهم لما قال لهم إني لأجد ربح يوسف هذه الجملة ، تالله إنك لفي ضلالك القديم ، (٣) أى قال إبراهيم لقومه هذه الآية ، أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون فإنهم عبدوا إلا لا رب العالمين ، من سورة الشعراء (٤) تمام هذا البيت ، وكل نعيم لاحالة زائل . وقد أطلق الرسول ﷺ على البيت كله كلمة

(١) الكلمة التي كبرت هي قول المشركين واليهود والنصارى الذين قالوا اتخذ الله ولدا فقال المشركون الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقبل هذه الآية ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا آياتهم كبرت كلمة (الآية من سورة الكهف (٦) هذه الكلمة مذكورة في تمام الآية وهي (ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا

وَيَنْتَكُمُ) الآية وقوله تعالى (وَجَعَلَ كَلِمَةَ^(٣) الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) وأمثال ذلك . ولا يوجد لفظ الكلام في لغة العرب إلا بهذا المعنى . والنحاة اصطالحوا على أن يسموا الاسم وحده والفعل والحرف كلمة ، ثم يقول بعضهم . وقد يراد بالكلمة الكلام . فيظن من اعتاد هذا أن هذا هو لغة العرب وكذلك لفظ ذوى الأرحام في الكتاب والسنة يراد به الأقارب من جهة الأبوين فيدخل فيهم العصبة وذوو الفروض وإن شمل ذلك من لا يرث بفرض ولا تعصيب ، ثم صار ذلك في اصطلاح الفقهاء اسماً لمؤلاء دون غيرهم ، فيظن من لا يعرف إلا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ في كلام الله ورسوله وكلام الصحابة . ونظائر هذا كثيرة .

ولفظ التوسل والاستشفاع ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة الرسول وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم ، والعلم يحتاج إلى نقل مصدق ونظر محقق ، والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالة كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية .

ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا أن نصلي على النبي ونسلم عليه في كل مكان . فهذا مما انفق عليه المسلمون . وكذلك رغبنا وحضنا في الحديث الصحيح على أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة وأن يبعثه مقاماً محموداً الذي وعده . فهذه الوسيلة التي شرع لنا أن نسألها الله تعالى - كما شرع لنا أن نصلي عليه ونسلم عليه - هي حق ، كما أن الصلاة عليه والسلام حق له ﷺ . والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه هي التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله . وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتباع النبي ﷺ بالإيمان به وطاعته . وهذا التوسل به فرض على كل أحد ، وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما يسأله الناس يوم القيامة أن يشفع لهم وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته في الاستسقاء وغيره مثل توسل الأعشى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه وشفاعته - فهذا نوع ثالث هو من باب قبول

بأننا مسلمون ، من سورة آل عمران (٣) كلمة الذين كفروا هي دعوة الشرك من مثل ما سبق من جعلهم لله ولداً واتخاذهم من دونه أندادا يدعونهم مع الله أو من دون الله ، وكلمة الله هي كلمة الشهادة (أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) والآية من سورة التوبة

الله دعاءه وشفاعته لسكرامته عليه ، فمن شفّع له الرسول ﷺ ودعا له فهو بخلاف من لم يدع ولم يشفع به ، ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به ، فظن هذا مشروعا مطلقا لكل أحد في حياته ويماته ، وظنوا أن هذا مشروع في حق الأنبياء والملائكة بل وفي الصالحين وفيمن يظن فيهم الصلاح وإن لم يكن صالحا في نفس الأمر . وليس في الأحاديث المرفوعة في ذلك حديث في شيء من دواوين المسلمين التي يعتمد عليها في الأحاديث - لا في الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد المعتمدة كمسند الإمام أحمد وغيره ، وإنما يوجد في الكتب التي عرف أن فيها كثيرا من الأحاديث الموضوعة المسكوبة التي يخلقها الكذابون ، بخلاف من قد غلط في الحديث ولا يعتمد الكذب ، فان هؤلاء توجد الرواية عنهم في السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه بخلاف من يعتمد الكذب فان أحمد لم يرو في مسنده عن أحد من هؤلاء . ولهذا تنازع الحافظ أبو العلام الهمداني والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي : هل في المسند حديث موضوع ؟ فأناكر الحافظ أبو العلام أن يكون في المسند حديث موضوع ، وأثبت ذلك أبو الفرج وبين أن فيه أحاديث قد علم أنها باطلة . ولا منافاة بين القولين فان الموضوع في اصطلاح أبي الفرج هو الذي قام دليل على أنه باطل وإن كان المحدث به لم يعتمد الكذب بل غلط فيه ولهذا روى في كتابه في الموضوعات أحاديث كثيرة من هذا النوع ، وقد نازعه طائفة من العلماء في كثير مما ذكره وقالوا إنه ليس مما يقوم دليل على أنه باطل ، بل بينوا ثبوت بعض ذلك لكن الغالب على ما ذكره في الموضوعات أنه باطل باتفاق العلماء . وأما الحافظ أبو العلام وأمثاله فانما يريدون بالموضوع المختلق المصنوع الذي تعمد صاحبه الكذب والكذب كان قليلا في السلف .

أما الصحابة فلم يعرف فيهم - والله الحمد - من تعمد الكذب على النبي ﷺ كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة^(١) ، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق ، ولا كان فيهم من قال إنه أتاه الخضر ، فإن خضر موسى مات كما بين هذا في غير هذا الموضوع ، والخضر الذي يأتي (١) قد عرفت بهذه الفرق في التعليق على كتابي لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة وتجريد التوحيد المفيد للإمام القرطبي وهما في متناول القارى . يرجع إليهما إذا شاء .

كثيراً من الناس إنما هو جنى تصور بصورة إنسى أو إنسى كذاب ، ولا يجوز أن يكون ملكاً مع قوله أنا الخضر ، فإن الملك لا يكذب وإنما يكذب الجنى والإنسى . وأنا أعرف من أناه الخضر وكان جنياً^(١) ممن يطول ذكره في هذا الموضع . وكان الصحابة أعلم من أن يروج عليهم هذا التلبس^(٢) ، وكذلك لم يكن فيهم من حملته الجن إلى مكة وذهبت به إلى عرفات ليقف بها كما فعلت ذلك بكثير من الجاهل والعباد وغيرهم ، ولا كان فيهم من تسرق الجن أموال الناس وطعامهم وتأتيه به فيظن أن هذا من باب السكرامات كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب في التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة ، بخلاف الشيعة فإن الكذب معروف فيهم ، وقد عرف الكذب بعد هؤلاء في طوائف . وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس بل في الصحابة من قد غلط أحياناً وفيمن بعدهم ، ولهذا كان فيما صنف في الصحيح أحاديث يعلم أنها غلط وإن كان جمهور متون الصحيحين مما يعلم أنه حق . فالخافض أبو العلام يعلم أنها غلط والإمام أحمد نفسه قد بين ذلك وبين أنه رواها لتعرف بخلاف ما تعمد صاحبه الكذب . ولهذا نزه أحمد مسنده عن أحاديث جماعة يروى عنهم أهل السنن كأبي داود والترمذي مثل مشيخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده ، وإن كان أبو داود يروى في سننه منها ، فشرط أحمد في مسنده أجود من شرط أبي داود في سننه .

والمقصود أن هذه الأحاديث التي تروى في ذلك من جنس أمثالها من الأحاديث الغربية المنكرة بل الموضوعية التي يرويها من يجمع في الفضائل والمناقب الغث والسمين كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف في فضائل الاوقات وفضائل العبادات وفضائل الانبياء والصحابة وفضائل البقاع ونحو ذلك ، فإن هذه الابواب فيها أحاديث صحيحة وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث كذب موضوعة . ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن يروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذ لم يعلم أنه

(١) لعل أصل الكلام من يطول أى يعرف المؤلف كثيراً من الناس أتاهم الخضر الجنى

يطول الكلام بذكرهم (٢) أى التدليس والتشكيك

كذب . وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعى وروى في فضله حديث لا يعلم أنه كذب جاز أن يكون الثواب حقا ، ولم يقل أحد من الأئمة إنه يجوز أن يجعل الشيء واجبا أو مستحبا بحديث ضعيف ، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع . وهذا كما أنه لا يجوز أن يحرم شيء إلا بدليل ، لكن إذا علم تحريره وروى حديث في وعيد الفاعل له ولم يعلم أنه كذب جاز أن يرويه ، فيجوز أن يروى في الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب لكن فيما علم أن الله رغب فيه أو رهب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله .

وهذا كالإسرائيليات يجوز أن يروى منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب فيما علم أن الله تعالى أمر به في شرعنا ونهى عنه في شرعنا . فأما أن يثبت شرعا لنا بمجرد الإسرائيليات التي لم تثبت فهذا لا يقوله عالم ، ولا كان أحمد بن حنبل ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الأحاديث في الشريعة ، ومن نقل عن أحمد أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذي ليس بصحيح ولا حسن فقد غلط عليه ولا كمن كان في عرف أحمد بن حنبل ومن قبله من العلماء أن الحديث ينقسم إلى نوعين صحيح وضعيف والضعيف عندهم ينقسم إلى ضعيف متروك لا يحتج به ، وإلى ضعيف حسن ، كما أن ضعف الإنسان بالمرض ينقسم إلى مرض يخوف يمنع التبرع من رأس المال وإلى ضعيف خفيف لا يمنع من ذلك .

وأول من عرف أنه قسم الحديث ثلاثة أقسام : صحيح ، وحسن ، وضعيف هو أبو عيسى الترمذى في جامعه . والحسن عنده ما تعددت طرقه ولم يكن في رواه متهم وليس بشاذ . فهذا الحديث وأمثاله يسميه أحمد ضعيفا ويحتج به ، ولهذا مثل أحمد الحديث الضعيف الذى يحتج به بحديث عمرو بن شعيب وحديث إبراهيم الهجرى ونحوهما . وهذا مبسوط في موضعه .

والأحاديث التى تروى في هذا الباب - وهو السؤال بنفس المخلوقين - هى من الأحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة ، ولا يوجد فى أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها ، مثل الحديث الذى يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده أن أبا بكر الصديق أتى النبي ﷺ فقال إني أنعم القرآن ويتفقت منى ، فقال له رسول الله ﷺ : « قل اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وبإبراهيم خليلك

وموسى نجيك وعيسى روحك وكلبتك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد وبكل وحى أوحيته وقضاء قضيته ، وذكر تمام الحديث . وهذا الحديث ذكره رزين بن معاوية العبدري في جامعه ونقله ابن كثير في جامع الأصول ولم يعزه لا هذا ولا هذا إلى كتاب من كتب المسلمين ، لكنه قد رواه من صنف في عمل يوم وليلة كابن السنن وأبي نعيم ، وفي مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوع لا يجوز الاعتماد عليها في الشريعة باتفاق العلماء ، وقد رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب فضائل الأعمال وفي هذا الكتاب أحاديث كثيرة كذب موضوع ، ورواه أبو موسى المدني من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك بن هارون بن عنزة وقال هذا حديث حسن مع أنه ليس بالم متصل ، قال أبو موسى : ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن أبيه عن جده عن الصديق رضي الله عنه ، وعبد الملك ليس بذلك القوى وكان بالري ، وأبوه وجده ثقتان .

قلت : عبد الملك بن هارون بن عنزة من المعروفين بالكذب . قال يحيى بن معين وقال السعدي . دجال كذاب . وقال أبو حاتم بن حبان : يضع الحديث . وقال النسائي : متروك . وقال البخاري : منكر الحديث ، وقال أحمد بن حنبل : ضعيف ، وقال ابن عدي : له أحاديث لا يتابعه عليها أحد . وقال الدارقطني : هو وأبوه ضعيفان . وقال الحاكم في كتاب المدخل : عبد الملك بن هارون بن عنزة الشيباني روى عن أبيه أحاديث موضوع . وأخرجه أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الموضوعات ، وقول الحافظ أبي موسى : هو منقطع ، يريد أنه لو كان رجاله ثقات فإن إسناده منقطع . وقد روى عبد الملك هذه الأحاديث الآخر^(١) المناسب لهذا في استفتاح أهل الكتاب به كما سيأتي ذكره وخالف فيه عامة ما نقله المفسرون وأهل السير وما دل عليه القرآن ، وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه من أنه متروك إما لتعمده الكذب وإما لسوء حفظه ، وتبين أنه لا حجة لا في هذا ولا في ذاك .

ومثل ذلك الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وموقوفاً عليه ، أنه لما اقترَف آدم الخطيئة قال : يارب (١) لعل الأصل ، هذا الحديث الآخر ، على أن لفظ هذا صفة لعبد الملك ، ولولا ذلك لقال : المناسبة ، بدل ، المناسب ، إلا أن يكون سقط من النسخ فاعل مذكر لاسم الفعل كلفظ د معناه ، أي المناسب د معناه ، لهذا .

أسألك بحق محمد لما غفرت لي . قال وكيف عرفت محمدًا ؟ قال : لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا . لا إله إلا الله محمد رسول الله . فعلت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . قال : صدقت يا آدم ولولا محمد ما خلقتك ، وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن مسلم الفهرى عن إسماعيل بن سبرة عنه . قال الحاكم ، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن في هذا الكتاب . وقال الحاكم : هو صحيح . ورواه الشيخ أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة موقوفا على عمر من حديث عبد الله بن إسماعيل بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم موقوفا ، ورواه الأجرى أيضا من طريق آخر من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه موقوفا عليه ، وقال حدثنا هارون بن يوسف التاجر ، حدثنا أبو مروان العثماني ، حدثني أبو عثمان ابن خالد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أنه قال : من الكلمات التي تاب الله بها على آدم : قل اللهم إني أسألك بحق محمد عليك قال الله تعالى : وما يدريك ما محمد ؟ قال يا رب رفعت رأسي فرأيت مكتوبا على عرشك لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلت أنه أكرم خلقك .

قلت : ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه فإنه نفسه قد قال في كتاب المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا تحفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه . قلت وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم بغلط كثيرا ضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم ، وقال أبو حاتم بن حبان : كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل وإستناد الموقوف فاستحق الترك .

وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا إن الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث كما صحح حديث زريب ابن برملى الذى فيه ذكر وصى المسيح وهو كذب باتفاق أهل المعرفة كما بين ذلك البيهقي وابن الجوزي وغيرهما ، وكذلك أحاديث كثيرة في مستدركه يصححها وهي عند أئمة أهل العلم بالحديث موضوعة ، ومنها ما يكون موقوفا يرفعه ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم وإن كان غالب

ما يصححه فهو صحيح ، لكن هو في المصححين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه وإن كان الصواب أغلب عليه . وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه ، بخلاف أبي حاتم ابن حبان البستي فإن تصحيحه فوق تصحيح الحاكم وأجل قدرا ، وكذلك تصحيح الترمذى والدارقطنى وابن خزيمة وابن منده وأمثالهم فيمن يصحح الحديث فإن هؤلاء وإن كان في بعض ما ينقلونه نزاع فهم أتقن في هذا الباب من الحاكم . ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم . ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخارى ، بل كتاب البخارى أجل ما صنف في هذا الباب . والبخارى من أعرف خلق الله بالحديث وعلمه مع فقهه فيه ، وقد ذكر الترمذى أنه لم ير أحدا أعلم بالعلل منه ، ولهذا كان من عادة البخارى إذا روى حديث^(١) اختلف في إسناده أو في بعض ألفاظه أن يذكر الاختلاف في ذلك لئلا يغتر بذكره له بأنه إنما ذكره مقرونا بالاختلاف فيه .

ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخارى مما صححه يكون قوله فيه راجحا على قول من نازعه ، بخلاف مسلم بن الحجاج فإنه نوزع في عدة أحاديث مما خرجها وكان الصواب فيها مع من نازعه ، كما روى في حديث الكسوف أن النبي ﷺ صلى بثلاث ركوعات وبأربع ركوعات كما روى أنه صلى بركوعين ، والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين وأنه لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات إبراهيم . وقد بين ذلك الشافعى وهو قول البخارى وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه ، والأحاديث التى فيها الثلاث والأربع فيها أنه صلاها يوم مات إبراهيم . ومعلوم أنه لم يمّت في يوم كسوف ولا كان له إبراهيمان ، ومن نقل أنه مات عاشر الشهر فقد كذب ، وكذلك روى مسلم ، خلق الله التربة يوم السبت ، ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحيى ابن معين والبخارى وغيرهما فينبوا أن هذا غلط ليس من كلام النبي ﷺ . والحجة مع هؤلاء فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن آخر ما خلقه هو آدم وكان خلقه يوم الجمعة . وهذا الحديث المختلف فيه يقتضى أنه خلق ذلك في الأيام السبعة . وقد روى إسناده أصح

(١) كانت في الأصل حديث بدون ألف فصحتها لأنها مفعول به غير ممنوع من

الصرف يستحق النصب

من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد . وكذلك روى أن أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي ﷺ أن يتزوج بأمة حبيبة وأن يتخذ معاوية كاتباً ، وغلط في ذلك طائفة من الحفاظ . ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث تلقوها بالقبول وأجمعوا عليها وهم يعلمون علماً قطعياً أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها . وبسط الكلام في هذا له موضع آخر .

وهذا الحديث المذكور في آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير إسناد وما هو من جنسه مع زيادات أخر كما ذكر القاضي عياض قال وحكى أبو محمد المكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهما ، أن آدم عند معصيته قال : اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي . قال ويروى تقبل توبتي . فقال الله من أين عرفت محمداً ؟ قال رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قال ويروى محمد عبدي ورسولي ، فعلبت أنه أكرم خلقك عليك . فتأب عليه وغفر له ، ، ومثل هذا لا يجوز أن تبني عليه الشريعة ولا يحتاج به في الدين باتفاق المسلمين فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التي لا تعلم صحتها إلا بنقل ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه لو نقلها مثل كتب الأخبار ووهب بن منبه وأمثالها من ينقل أخبار المبتدأ^(١) وقصص المتقدمين عن أهل الكتاب لم يحز أن يحتاج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين ، بل إنما ينقلها عن من هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتاج بحديثه ، واضطرب عليه فيها اضطراباً يعرف^(٢) أنه لم يحفظ ذلك ، ولم ينقل ذلك ولا ما يشبهه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمدون على نقلهم وإنما هي من جنس ما ينقله إسحاق بن بشر وأمثاله في كتب المبتدأ : وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعاً لهم وحينئذ فمكان الاحتجاج بها مبني على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا ؟ والنزاع في ذلك مشهور . لكن الذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شرع^(٣) قبلنا^(٤) من نقل الثابت عن نبينا ﷺ أو بما تواتر

(١) أي مبدأ الخلق (٢) لعل الأصل : يعرف به (ر)

(٣) يظهر أنه سقط هنا كلمة (من) فيكون نظم الكلام (أنه شرع من قبلنا)

(٤) والظاهر أن أصل هذه العبارة بالنقل كما يدل على ذلك سياق الكلام

عنهم لا بما يروى على هذا الوجه ، فان هذا لا يجوز أن يحتج به في شرع المسلمين
أحد من المسلمين .

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير
باسناده عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال : « من سره أن يوعيه الله حفظ القرآن وحفظ
أصناف العلم فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف أو في صحف قوارير بعسل وزعفران
وماء مطر وليشربه على الريق وليصم ثلاثة أيام وليسكن إفطاره عليه ويدعو به في
أدبار صلواته - اللهم إني أسألك بأنك مسئول لم يسأل مثلك ولا يسأل ، وأسألك
بحق محمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى روحك وكتبك ووجهك ،
وذكر تمام الدعاء . وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين ، قال أبو أحمد بن
عدي فيه : منكر الحديث ، وقال أبو حاتم ابن حبان : دجال يضع الحديث وضع
على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً في التفسير جمعه من كلام السكبي ومقاتل
ويروى نحو هذا دون الصوم عن ابن مسعود من طريق موسى بن إبراهيم المروزي
حدثنا وكيع عن عبيدة عن شقيق عن ابن مسعود وموسى بن إبراهيم هذا قال فيه
يحيى بن معين : كذاب ، وقال الدارقطني : متروك ، وقال ابن حبان : كان مغفلاً يلقن
فيلقن فاستحق الترك . ويروى هذا عن عمر بن عبد العزيز عن مجاهد بن جبير عن
عن ابن مسعود بطريق أضعف من الأول . ورواه أبو الشيخ الأصبهاني من حديث
أحمد بن إسحاق الجوهرى : حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا زهير بن العلاء العتي ، حدثنا
يوسف بن يزيد عن الزهرى ورفع الحديث قال : « من سره أن يحفظ فليصم سبعة
أيام وليسكن إفطاره في آخر الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات . »

قلت : وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شيء ، وقد رواه أبو موسى المديني في
أماليه وأبو عبد الله المقدسي على عادة أمثالهم في رواية ما يروى في الباب سواء
كان صحيحاً أو ضعيفاً كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين أنهم يروون ما روى
به الفضائل ويجعلون العهدة في ذلك على الناقل كما هي عادة المصنفين في فضائل
الأوقات والأمكنة والأشخاص والعبادات . كما يرويه أبو الشيخ الأصبهاني في
فضائل الأعمال وغيره حيث يجمع أحاديث كثيرة لسكثرة روايته ، وفيها أحاديث
كثيرة قوية صحيحة وحسنة ، وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية ، وكذلك

ما يرويه خيثمة بن سليمان في فضائل الصحابة وما يرويه أبو نعيم الأصبهاني في فضائل الخلفاء في كتاب مفرد وفي أول حليسة الأولياء ، وما يرويه أبو الليث السمرقندي وعبد العزيز السكناني وأبو علي بن البناء وأمثالهم من الشيوخ ، وما يرويه أبو بكر الخطيب وأبو الفضل بن ناصر وأبو موسى المديني وأبو القاسم بن عساكر والحافظ عبد الغني وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث فانهم كثيرا ما يروون في تصانيفهم ما روى مطلقا على عادتهم الجارية ليعرف ما روى في ذلك الباب لا ليحتج بكل ما روى . وقد يتسكلم أحدهم على الحديث ويقول : غريب ، ومنكر ، وضعيف . وقد لا يتسكلم وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتاجون به ويبنون عليه دينهم مثل مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وسفيان ابن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، وكيع بن الجراح ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وعلي بن المديني ، والبخاري ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، وأبي داود ، ومحمد بن نصر المروزي ، وابن خزيمة ، وابن المنذر ، وداود بن علي ، ومحمد بن جرير الطبري . وغير هؤلاء ، فان هؤلاء الذين يبنون الأحكام على الأحاديث يحتاجون أن يجتهدوا في معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها .

وكذلك تكلموا في الحديث والرجال ليميزوا بين هذا وهذا لأجل معرفة الحديث كما يفعل أبو أحمد بن عدي ، وأبو حاتم البستي ، وأبو الحسن الدارقطني ، وأبو بكر الاسماعيلي . وكما قد يفعل ذلك أبو بكر البيهقي ، وأبو إسماعيل الأنصاري ، وأبو القاسم الزنجاني ، وأبو عمر بن عبد البر ، وأبو محمد بن حزم ، وأمثال هؤلاء ، فان بسط هذه الأمور له موضع آخر ، ولم نذكر من لا يروى بإسناد مثل كتاب وسيلة المتعبدين لعمر الملا الموصل ، وكتاب الفردوس لشهريار الديلمي ، وأمثال ذلك . فان هؤلاء دون هؤلاء الطبقات ، وفيما يذكرونه من الأكاذيب أمر كبير .

والمقصود هنا أنه ليس في هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعتمد عليه في مسألة شرعية بانفاق أهل المعرفة بحديثه ، بل المروى في ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات إما تعمدا من واضعه وإما غلطا منه .

وفي الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة ، فمنها حديث الأربعة الذين اجتمعوا

عند السكبة وسالوا ، وهم عبد الله ومصعب ابنا الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك ابن مروان ، ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب مجاني الدعاء ورواه من طريق اسماعيل ابن أبان الغنوي عن سفیان الثوري عن طارق بن عبد العزيز عن الشعبي أنه قال : « لقد رأيت عجبا ! كنا بفناء السكبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب ابن الزبير وعبد الملك بن مروان فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليماني وليسأل الله حاجته فانه يعطى من سعة . ثم قالوا : قم يا عبد الله بن الزبير فانك أول مولود في الإسلام بعد الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تمتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ، ويسلم على بالخلافة ، ثم جاء فجلس . ثم قام مصعب فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك رب كل شيء ، واليك يصير كل شيء ، أسألك بقدرتك على كل شيء ، ألا تمتني من الدنيا حتى توليني العراق ، وتزوجني بسكينة بنت الحسين . ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم رب السموات السبع ورب الأرض ذات الثبت بعد القفر أسألك بما سألك به عبادك المطيعون لأمرك وأسألك بحقك على خلقك وبحق الطائفتين حول عرشك ، إلى آخره .

قلت : واسماعيل بن أبان الذي روى هذا عن سفیان الثوري كذاب ، قال أحمد ابن حنبل : كتبت عنه ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه : وقال يحيى ابن معين : وضع حديثا على السابع من ولد العباس يلبس الخضر (يعني المأمون) وقال البخاري ومسلم وأبو زرعة والدارقطني : متروك . وقال الحوزجاني : ظهر منه على الكذب . وقال أبو حاتم : كذاب . وقال ابن حبان : يضع على الثقات .

وطارق بن عبد العزيز الذي ذكر ان الثوري روى عنه لا يعرف من هو . فان طارق بن عبد العزيز المعروف الذي روى عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة وقد خولف فيها فرواها أبو نعيم عن الطبراني : حدثنا أحمد بن زيد بن الجريش ، حدثنا أبو حاتم السجستاني ، حدثنا الأصمعي . قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : « اجتمع في الحجر مصعب وعروة وعبد الله أبناء الزبير وعبد الله بن عمر فقالوا : تمنوا . فقال عبد الله بن الزبير : اما أنا فأتمني الخلافة ، وقال عروة : اما أنا فأتمني أن

يؤخذ عن العلم ، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق ، واجتمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وقال عبد الله بن عمر : أما أنا فأتمنى المغفرة . قال : فقال كلهم ماتموا ولعل ابن عمر قد غفر له .

قلت : وهذا إسناد خير من ذلك الإسناد باتفاق أهل العلم ، وليس فيه سؤال بالمخلوقات . وفي الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى مناما قيل له فيه : ادع بكذا وكذا ، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلا باتفاق العلماء ، وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع الأدعية ، وروى في ذلك أثر عن بعض السلف مثل ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب مجاني الدعاء ، قال : حدثنا أبو هاشم : سمعت كثير بن محمد بن كثير ابن رفاعه يقول : جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبيجر فجس بطنه فقال : بك داء لا يبرأ - قال ما هو ؟ قال - الديلة ^(١) . قال فتحول الرجل فقال . الله الله الله ربي لا أشرك به شيئا ، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ تسليما ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك ورب رحمتي بما بي ، قال فجس بطنه فقال : قد برئت ، ما بك علة .

قلت فهذا الدعاء ونحوه قد روى أنه دعا به السلف ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروزي التوسل بالنبي ﷺ في الدعاء ، ونهى به ^(٢) آخرون . فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبة وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع ، وماتنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول وليس بمجرد كون الدعاء حصل به المقصود ^(٣) ما يدل على أنه سائغ في الشريعة فإن كثيرا من الناس يدعون من دون الله من السكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضه ^(٤) . وبعض الناس يقصد ^(٥) الدعاء عند الآوثان والكنائس وغير ذلك ويدعو التماثيل التي في الكنائس ويحصل ما يحصل من غرضه . وبعض الناس يدعو بأدعية محرمة باتفاق المسلمين ويحصل ما يحصل من غرضه .

- (١) الديلة بضم الدال وفتح الباء واللام داء في الجوف
(٢) كذا وأعله ونهى عنه ، (ر) لعل دماء هذه زائدة في الكتابة لأن الأسلوب يصح بدونها ولا فائدة لها (٤) لعل الأصل « غرضهم » أم (ر) أقول يجوز أن يكون الأصل كما هنا فيعود الضمير على كثير وهو مفرد لفظا (٥) أصل نستختار ويقصدون ، (ر)

فصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته وإن كان الغرض مباحا ، فإن ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد ، لكن لما كانت مفسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها ، كما أن كثيرا من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرّة ، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع . فهذا أصل يجب اعتباره ، ولا يجوز أن يكون الشيء واجبا أو مستحبا إلا بدليل شرعي يقتضى إيجابه أو استحبابه . والعبادات لا تكون إلا واجبة أو مستحبة ، فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة . والدعاء لله تعالى عبادة إن كان المطلوب به أمرا مباحا .

وفي الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به ، بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى إليهم ، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين .

وحديث الأعمى الذي رواه الترمذى والنسائى هو من القسم الثانى من التوسل بدعائه ، فإن الأعمى قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره . فقال له : « إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك - فقال بل ادعه (١) ، فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين ويقول : « اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة يا محمد ، يا رسول الله ، إني أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه ليقضها ، اللهم فشفعه فى ، فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ودعاء (٢) له النبي ﷺ ولهذا قال : وشفعه فى ، فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه .

وهذا الحديث ذكره العلماء فى معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب ، وما أظهر

(١) هذه هاء السكت وليست ضميرا وأصل الكلمة ادع ولما كان الوقف عليها غير

ثابت زيدت هاء السكت (٢) الهمزة هنا زائدة والأصل ودعا

الله ببركة دعائه من الخوارق والإبرام من العاهات ، فانه ﷺ ببركة دعائه لهذا
الأعمى أعاد الله عليه بصره .

وهذا الحديث حديث الأعمى قد رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره :

رواه البيهقي من حديث عثمان بن عمر عن شعبة عن أبي جعفر الخطمي ، قال : سمعت
عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ
فقال : ادع الله أن يعافيني ، فقال له : إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك وإن شئت
دعوت ، قال فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويدعو بهذا
الدعاء - اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه
بك إلى ربّي في حاجتي هذه فيقضيها لي ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه ، قال فقام وقد
أبصر ، ومن هذا الطريق رواه الترمذي من حديث عثمان بن عمر ، ومنها ^(١) رواه
النسائي وابن ماجه أيضاً ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب لا يعرف
إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي ، هكذا وقع في الترمذي
وسائر العلماء قالوا هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب . وأيضاً فالترمذي ومن معه
لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء بل رَوَوْهُ إلى قوله « اللهم شفعه في ، قال
الترمذي حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة عن أبي جعفر
عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً البصر أتى النبي
ﷺ فقال : ادع الله أن يعافيني قال : إن شئت صبرت فهو خير لك ، قال فادعه ، قال
فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء - اللهم إني أسألك وأتوجه
إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربّي في حاجتي هذه لتقضي ،
اللهم شفعه في ، قال البيهقي : رويناه في كتاب الدعوات بإسناد صحيح عن روح بن
عبادة عن شعبة ، قال : ففعل الرجل فبرأ ، قال : وكذلك رواه حماد عن سبله عن
أبي جعفر الخطمي .

قلت : ورواه الإمام أحمد في مسنده عن روح بن عبادة كما ذكره البيهقي . قال
أحمد : حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة عن أبي جعفر المديني : سمعت عمارة بن

(١) أي ومن هذه الطريق نفسها التي روى منها الترمذي فالطريق تؤنث وتذكر .

(٧ - التوسل والوسيلة)

خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله ادع الله أن يعافيني قال « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك وإن شئت دعوت لك ، قال لا بل ادع الله لي ؛ فأمره أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى الله في حاجتي هذه ، فتقضى لي وتشفعني فيه وتشفعه في ، قال ففعل الرجل فبريء . رواه البيهقي أيضاً من حديث شبيب بن سعيد الخطمي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني - وهو الخطمي - عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن عثمان بن حنيف قال سمعت رسول الله ﷺ وجاءه رجل ضربه يشتكي إليه ذهاب بصره فقال يا رسول الله ، ليس لي قائد وقد شق علي فقال رسول الله ﷺ « انت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلى عن بصرى ، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي ، قال عثمان بن حنيف : والله ما تفرقتنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط .

فرواية شبيب عن روح عن أبي جعفر الخطمي خالفت رواية شعبة وحماد بن سلمة في الإسناد والماتن ، فإن في تلك أنه رواه أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة ، وفي هذه أنه رواه عن أبي أمامة سهل ، وفي تلك الرواية أنه قال : فشفعه في وشفعني فيه وفي هذه وشفعني في نفسي . لسكن هذا الإسناد له شاهد آخر من رواية هشام الدستوائي عن أبي جعفر .

ورواه البيهقي من هذا الطريق وفيه قصة قد يحتاج بها من توسل به بعد موته - إن كانت صحيحة - رواه من حديث اسماعيل بن شبيب بن سعيد الخطمي عن شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ، فلقى الرجل عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : انت الميضاة فتوضأ ثم انت المسجد فصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضى لي حاجتي . ثم اذكر حاجتك ثم رح حتى أروح معك ، قال فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم أتى بعد عثمان بن عفان

بجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : انظر ما كانت لك من حاجة . فذكر حاجته فقضاها له ، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيرا ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلى حقى كلمته في . فقال عثمان بن حنيف : ما كلمته ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول ، وجاءه ضرير وشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ « أو تصبر » ^(١) ؟ فقال له : يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق على فقال : « انت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم أنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه ^(١) إلى ربى فيجلى لى عن بصرى ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فى نفسى » قال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقتنا وما طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط قال البيهقي ورواه أحمد بن محمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله وساقه من رواية يعقوب ابن سفيان عن أحمد بن شبيب بن سعيد . قال ورواه أيضا هشام الدستوائي عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل عن عمه وهو عثمان بن حنيف ولم يذكر إسناد هذه الطريق .

قلت : وقد رواه ابن السنن فى كتاب عمل اليوم والليلة من هذه الطريق من حديث معاذ بن هشام عن أبيه عن أبي جعفر عن أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف : ورواه أيضا من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبي جعفر عن عمارة ابن خزيمة ، ولم يروه أحد من هؤلاء لا الترمذى ولا النسائى ولا ابن ماجه من ذلك الطريق الغربية التى فيها الزيادة - طريق شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم - لكن رواه الحاكم فى مستدركه من الطريقين فرواه من حديث عثمان بن عمر : حدثنا شعبة عن أبي جعفر المدنى سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله أن يعافينى فقال : « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك وإن شئت دعوت » قال : فادعه فامرّه أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إنى توجّهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه ، اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه » قال

(١) كذا وقد علم من الروايات السابقة أنه خير به بين الدعاء له والصبر لعل هذا اختصار (ر)

(١) لعله سقط من هذا لفظ « بك » (ر) .

الحاكم على شرطهما ، ثم رواه من طريق شبيب بن سعيد الجنظي وعون بن عمار عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أنه سمع النبي ﷺ وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وقال يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق على فقال : أنت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلى لي عن بصرى ، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي ، قال عثمان فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكان لم يكن به ضر قط . قال الحاكم على شرط البخاري .

وشبيب هذا صدوق روى له البخاري لكنه قد روى له عن روح بن الفرج أحاديث مناكير رواها ابن وهب وقد ظن غلط عليه ، ولكن قد يقال مثل هذا إذا انفرد عن الثقات الذين هم أحفظ منه مثل شعبة وحماد بن سلمة وهشام الدستوائي بن زيادة كان ذلك عليه في الحديث ، لا سيما وفي هذه الرواية أنه قال : فشفعه في وشفعني في نفسي ، وأولئك قالوا : فشفعه في وشفعني فيه ، ومعنى قوله : وشفعني فيه ، أى في دعائه وسؤاله لي فيطابق قوله : وشفعه في ل أحمد بن عدى في كتابه المسمى بالكامل في أسماء الرجال - ولم يصنف في فنه مثله : شبيب بن سعيد الجنظي أبو سعيد البصري التيمي حدث عنه ابن وهب بالمناكير ، وحدث عن يونس عن الزهري بنسخة الزهري أحاديث مستقيمة ، وذكر عن علي بن المديني أنه قال : هو بصرى ثقة كان من أصحاب يونس ، كان يختلف في تجارة إلى مصر وجاء بكتاب صحيح . قال : وقد كتبها عن ابنه أحمد بن شبيب وروى عن عدى حديثين عن ابن وهب عن شبيب هذا عن روح بن الفرج ، أحدهما عن ابن عقيل عن سابق بن ناجية عن ابن سلام قال : مر بنا رجل فقالوا إن هذا قد خدم النبي ﷺ . والثاني عنه عن روح بن الفرج عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد . قال ابن عدى : كذا قيل في الحديث عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ : قال ابن عدى : وشبيب بن سعيد بنسخة الزهري عنده عن يونس عن الزهري وهي أحاديث مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير .

وحدثني روح بن الفرغ الذين أمليتهما^(١) يرويها ابن وهب عن شبيب . وكان شبيب ابن سعيد إذا روى عن ابنه^(٢) أحمد بن شبيب نسخة الزهري ليس هو شبيب ابن سعيد الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه ، ولعل شبيبا بصر في تجارته إليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم^(٣) وأرجو أن لا يعتمد شبيب هذا الكذب .

قلت : هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابن عدى عليه رواهما عن روح بن القاسم وكذلك هذا الحديث حديث الأعمى رواه عن روح بن القاسم . وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضا كما رواه عنه ابنه ، لسكنه لم يتقن لفظه كما أتقنه ابنه وهذا يصحح ما ذكره ابن عدى فعلم أنه محفوظ ، وابن عدى أحال الغلط عليه لا على ابن وهب ، وهذا صحيح إن كان قد غلط وإذا كان قد غلط على روح بن القاسم في ذنبك الحديثين أمكن أن يكون غلط عليه في هذا الحديث ، وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة فلماذا لم يحيلوا الغلط عليه . والرجل قد يكون حافظا لما يرويه عن شيخ غير حافظ لما يرويه عن آخر مثل إسماعيل بن عياش فيما يرويه عن الحجازيين فإنه يغلط فيه بخلاف ما يرويه عن الشاميين ، ومثل سفيان بن حسين فيما يرويه عن الزهري . ومثل هذا كثير ، فيحتمل أن يكون هذا يغلط فيما يرويه عن روح بن القاسم - إن كان الأمر كما قاله ابن عدى - وهذا محل نظر .

وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم من حديث ابن وهب عن شبيب بن سعيد رواه من حديث أصبغ بن الفرغ : حدثنا عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المسكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة

(١) هكذا وظاهر أن أصله ، الحديثين اللذين أمليتهما ، اهـ وأقول يجوز حذف الموصوف هنا لدلالة المقام عليه (٢) عبارة الذهبي في الميزان عن ابن عدى ، فإذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكانه شبيب آخر ، قال الذهبي يعني بجود اهـ وذلك بعد أن قال ابن عدى عنه أنه إذا حدث من حفظه لعله يغلط ويهم . وفي سياق المصنف غلط آخر والآفة من النسخ وقد صححت البديهي منه (ر) .

(٣) بهم مضارع وهم . بمعنى غلط وأخطأ

له فلقى عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : انت الميضاة فتوضا ثم انت المسجد فصلى فيه ركعتين ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد ﷺ نبي الرحمة ، يا محمد ، انى أتوجه بك إلى ربك عز وجل فيقضى لى حاجتى وتذكر حاجتك ، ورح حتى أروح معك ، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان ابن عفان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : حاجتك ، فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فاتتنا . ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلى حتى كلمته فى . فقال له عثمان بن حنيف والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ : أقتصر ؟ فقال يا رسول الله ! إنه ليس لى قائد وقد شق على ، فقال له رسول الله ﷺ : انت الميضاة فتوضا ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات ، فقال عثمان بن حنيف فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط .

قال الطبرانى روى هذا الحديث شعبة عن أبى جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبد الله المقدسى : والحديث صحيح . قلت والطبرانى ذكر تفرد به بمبلغ علمه ولم يبلغه رواية روح بن عباد عن شعبة وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم تفرد به عثمان بن عمر ، وطريق ابن وهب هذه تؤيد ما ذكره ابن عدى فانه لم يحرر لفظ الرواية كما حررها ابنه بل ذكر فيها أن الأعمى دعا بمثل ما ذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل فى حديث الأعمى أنه قال : اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه . أو قال - فى نفسى ، وهذه لم يذكرها ابن وهب فى روايته ، فيشبه أن يكون حدث ابن وهب من حفظه كما قال ابن عدى فلم يتقن الرواية . وقد روى أبو بكر بن خزيمة فى تاريخه حديث حماد بن سلمة فقال : حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا حماد بن سلمة ، نا أبو جعفر الخطمى عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف أن رجلا أعمى أتى النبي ﷺ فقال : انى أصبت فى بصرى فادع الله لى قال : اذهب فتوضا وصل ركعتين ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد نبي الرحمة يا محمد انى أستشفع بك على ربى فى رد بصرى ، اللهم فشفعنى فى نفسى وشفع نبي

في رد بصري ، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك ، فرد الله عليه بصره .
قال ابن أبي خيثمة : وأبو جعفر هذا - الذي حدث عنه حماد بن سلمة - اسمه
عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذي يروي عنه شعبة ، ثم ذكر الحديث من طريق
عثمان بن عمر عن شعبة .

قلت : وهذه الطريق فيها « فشغني في نفسي » ، مثل طريق روح بن القاسم وفيها
زيادة أخرى وهي قوله : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » - أو قال - فعل مثل
لك ، وهذه قد يقال : إنها توافق قول عثمان بن حنيف ، لكن شعبة وروح بن القاسم
أحفظ من حماد بن سلمة ، واختلاف الألفاظ تدل على أن مثل هذه الرواية قد
تسكون بالمعنى وقوله « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » ، قد يكون مدرجا من كلام
عثمان لا من كلام النبي ﷺ فإنه لم يقل « وإن كانت لك حاجة فعلت مثل ذلك » ، بل
قال « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » .

وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم تسكن فيها حجة ، وإنما غايتها أن يكون عثمان
ابن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض ، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع
بل ببعضه ، وظن أن هذا مشروع بعد موته صلى الله عليه وسلم ، ولفظ الحديث
يتناقض ذلك ، فإن في الحديث أن الأعمى سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو
له ، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره في الدعاء أن يقول « اللهم فشغني في » ، وإنما
يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي ﷺ داعيا شافعا له بخلاف من لم يكن كذلك ، فهذا
يناسب شفاعته ودعائه للناس في حياته في الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم ، وفيه أيضا
أنه قال « وشغني فيه » ، وليس المراد أن يشفع للنبي ﷺ في حاجة للنبي ﷺ وإن
كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه وأمرنا أن نسأل الله له الوسيلة ، ففي صحيح البخاري
عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « من قال إذا سمع النداء : اللهم رب
هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي
وعده . حلت له شفاعتي يوم القيامة » ، وفي مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال
رسول الله ﷺ « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فأن من صلى
على صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي

إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة .

وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة ، ولهذا كان الجزاء من جنس العمل ، فمن صلى عليه صلى عليه الله ، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفيع له ﷺ ، كذلك الأعمى سأل منه الشفاعة فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة فى الشفاعة . فلهذا قال اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه . وذلك أن قبول دعاء النبي ﷺ فى مثل هذا هو من كرامة الرسول على ربه ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته فهو كشفاعته يوم القيامة فى الخلق ، ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول « فشفعه فى وشفعنى فيه » بخلاف قوله « وشفعنى فى نفسى » فان هذا اللفظ لم يروه أحد إلا من هذا الطريق الغريب وقوله « وشفعنى فيه » رواه عن شعبة رجلان جليلان : عثمان بن عمر ، وروح بن عبادة . وشعبة أجل من روى هذا الحديث ، ومن طريق عثمان بن عمر عن شعبة رواه الثلاثة : الترمذى والنسائى وابن ماجه - رواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة ، ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سيار عن عثمان بن عمر ، وقد رواه أحمد فى المسند عن روح بن عبادة عن شعبة ، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث . مع أن قوله « وشفعنى فى نفسى » إن كان محفوظا مثل ما ذكرناه ، وهو أنه طلب أن يكون شفيعا لنفسه مع دعاء النبي ﷺ ولولم يدع له النبي ﷺ كان سائلا مجردا كسائر السائلين . ولا يسمى مثل هذا شفاعة وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرا فيكون أحدهما شفيعا للآخر بخلاف الطالب الواحد الذى لم يشفع (له) غيره .

فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها عن من هو أكبر وأحفظ منه ، وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وإن راوينا عرف له - عن روح هذا - أحاديث منكرة ، ومثل هذا يقتضى حصول الريب والشك فى كونها ثابتة . فلا حجة فيها ، إذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذى رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه ، ومعلوم أن الواحد بعد موته إذا قال : اللهم فشفعه فى وشفعنى فيه - مع أن النبي ﷺ لم يدع له - كان هذا كلاما باطلا ، مع أن عثمان بن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي ﷺ شيئا ولا أن يقول فشفعه فى ، ولم

بأمره بالدعاء المأثور على وجهه ، وإنما أمره ببعضه ، وليس هناك من النبي صلى الله عليه وسلم شفاعته ولا ما يظن أنه شفاعته ، فلو قال بعد موته « فشفعه في » لكان كلاماً لا معنى له ، ولهذا لم يأمر به عثمان : والدعاء المأثور عن النبي ﷺ لم يأمر به ، والذي أمر به ليس مأثوراً عن النبي ﷺ . ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة في حسن العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات إذا لم يوافقه غيره من الصحابة عليه ، وكان ما يثبت عن النبي ﷺ يخالفه لا يوافقه لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها ، بل غاية أن يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد وما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول .

ولهذا نظائر كثيرة : مثل ما كان عمر يدخل الماء في عينيه في الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماءً جديداً ، وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى العضدين في الوضوء ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروى عنه أنه كان يمسح عنقه ويقول هو موضع اللغل . فإن هذا وإن استحبه طائفة من العلماء اتباعاً لما فقد خالفهم في ذلك آخرون وقالوا : سائر الصحابة لم يكونوا يتوضؤون هكذا ، والوضوء الثابت عنه ﷺ الذي في الصحيحين وغيرهما من غير وجه ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ولا غسل ما زاد على المرفقين والسكعين ولا مسح العنق ، ولا قال النبي ﷺ : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل . بل هذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجاً في بعض الأحاديث وإنما قال النبي ﷺ : إنكم تأتون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء . ، وكان ﷺ يتوضأ حتى يشرع في العضد والساق ، قال أبو هريرة : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل وظن من ظن أن غسل العضد من إطالة الغرة ، وهذا لا معنى له فإن الغرة في الوجه لا في اليد والرجل ، وإنما في اليد والرجل الحجلة . والغرة لا يمكن إطالتها فإن الوجه يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة في الرأس ، والحجلة لا يستحب إطالتها وإطالتها مثله .

وكذلك ابن عمر كان يتحري أن يسير مواضع سير النبي ﷺ وينزل مواضع منزله ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها ، ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحباً ، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء كما لم يستحبه ولم يفعله أكابر الصحابة كآبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود

ومعاذ بن جبل ، وغيرهم ، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر . ولو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعتهم والاعتداء به .

وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل ، فإذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك ، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة ، وأن يلمس الحجر الأسود ، وأن يصلي خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة خلف أسطوانة مسجد المدينة ، وقصد الصعود على الصفا والمروة والدعاء والذكر هناك ، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما ، وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده ، مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه بالصلاة والنزول فيه ، فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التي كان ينهى عنها عمر بن الخطاب كما ثبت بالاسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعروف بن سويد ، قال : كان عمر بن الخطاب في سفر فصلى الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون : صلى فيه النبي ﷺ . فقال عمر : إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس ويعا . فمن عرضت له الصلاة فليصل وإلا فليمض . فلما كان النبي ﷺ لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة ، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها ، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك ، ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب .

وهذا هو الأصل فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل ، ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة : هل فعلها استحبابا أو لحاجة عارضة تنازعوا فيها ، وكذلك نزوله بالمحصب عند الخروج من منى لما اشتبه : هل فعله لأنه كان أسمع بخروجه أو لكونه سنة ؟ تنازعوا في ذلك :

ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي ﷺ ، وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمر بن حريث بالكوفة ، فإن هذا لما لم يفعله سائر الصحابة ولم يكن النبي ﷺ شرعه لأمته لم يمكن أن يقال . هذا سنة مستحبة . بل غايته أن يقال : هذا مما ساء

فيه اجتهاد الصحابة ، أو عما لا ينسكرك على فاعله لأنه عما يسوغ فيه الاجتهاد ، لا لأنه سنة مستحبة سنها النبي ﷺ لأمته . أو يقال في التعريف : إنه لا بأس به أحيانا لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة .

وهكذا يقول أئمة العلم في هذا وأمثاله : تارة يكرهونه ، وتارة يسوغون فيه الاجتهاد ، وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة ، ولا يقول عالم بالسنة : إن هذه سنة مشروعة للمسلمين . فان ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله ﷺ إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع ، وما سنه خلفاؤه الراشدون فانما سنوه بأمره فهو من سننه ، ولا يكون في الدين واجبا إلا ما أوجبه ، ولا حراما إلا ما حرمه ، ولا مستحبا إلا ما أحبه ، ولا مكروها إلا ما كرهه ، ولا مباحا إلا ما أباحه .

وهكذا في الاباحات ، كما استباح أبو طلحة أكل البرد^(١) وهو صائم ، واستباح حذيفة السحور بعد ظهور الضوء المنتشر ، حتى قيل هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع ، وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك ، فوجب الرد إلى الكتاب والسنة .

وكذلك الكراهة والتحريم . مثل كراهة عمر وابنه للطيب قبل الطواف بالبيت وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج إلى التمتع^(٢) ، أو التمتع^(٣) مطلقا ، أو رأى تقدير مسافة القصر بحد حده^(٤) ، وأنه لا يقصر بدون ذلك ، أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم في السفر . ومن ذلك قول سلمان^(٥) : إن الرقيق نجس ، وقول ابن عمر : إن الكتانية لا يجوز نكاحها ، وتورث معاذ ومعاوية للمسلم إمن الكافر ، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن يتيمم ، وقول علي وزيد وابن عمر في المفوضة^(٦) :

(١) البرد . ماء المطر المنعقد حبات صغيرة (٢) التمتع هو الإحرام بالعمرة قبل الحج ، فن أحرم بالحج له أن يقلبه عمرة وعليه فداء فكره بعض الصحابة ذلك مع أن السنة أجازته (٣) أي ابتداء فكرهوا أن يحرم بالعمرة أولا ثم ينتظر الحج لما في ذلك من التمتع بمحظورات الحج في أثناء الإحرام بالعمرة . (٤) أي بحد أطول من الذي حدده به الشرع وهو المرحلتان (٥) هو سلمان الفارسي .

(٦) المفوضة هي التي زوجت بلامه فيجب لها مهر المثل سواء مات زوجها أو عاش إلا أن تنبه له بعد قبضه ، يخالف ذلك علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وقالوا إذا مات زوجها فليس لها شيء . ولكنه رأى يخالف الكتاب والسنة وقول باقي الصحابة فلا يعمل به .

أنه لا مهر لها إذا مات الزوج ، وقول علي وابن عباس في المتوفى عنها الحامل أنها تعتد أبعد^(١) الأجلين ، وقول ابن عمر وغيره : إن المحرم إذا مات بطل^(٢) إحرامه وفعل به ما يفعل بالحلل . وقول ابن عمر وغيره : لا يجوز الاشتراط^(٣) في الحج ، وقول ابن عباس وغيره في المتوفى عنها : ليس عليها لزوم المنزل ، وقول عمر وابن مسعود : إن المبتوتة^(٤) لها السكنى والنفقة . وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة ، فانه يجب فيه الرد إلى الله والرسول ، ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قال من العلماء : إن قول الصحابي حجة . فانما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه ، ثم إذا اشتهر ولم ينكروه كان إقرارا على القول ، فقد يقال : هذا إجماع إقرارى . إذا عرف أنهم أقروه ولم ينكروه أحد منهم ، وهم لا يقرون على باطل . وأما إذا لم يشتهر فهذا إن عرف أن غيره لم يخالفه فقد يقال : هو حجة . وأما إذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم يحزم بأحدهما ، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله ﷺ لا فيها يخالفها بلا ريب عند أهل العلم .

(١) المراد بالأجلين وضع الحمل ، والأربعة الأشهر والعشرة ، فيقول الإمام علي وابن عباس إن الحامل المتوفى عنها إذا وضعت قبل انقضاء أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها أكملت عدتها أربعة أشهر وعشرة ، وإذا لم تضع إلا بعد انقضاء الأشهر الأربعة والأيام العشرة كانت عدتها بوضع الحمل . ولكن القرآن جعل العدة بوضع الحمل . قال تعالى (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) (٢) الحكم الاصلى . أن المحرم بعد موته حالة الإحرام لا يطيب ، ولا يؤخذ شعره وظفره ولا يغطي رأس الرجل ولا وجه المرأة إبقاء لأثر الإحرام ، ولكن بعض الصحابة خالف السنة باجتهاده وقال إن المحرم كغيره .

(٣) الاشتراط في الحج أن يقول المحرم نويت الحج وأحرمت به الله تعالى فإن مرضت أو أحصرت أو نفدت زادى أو ضللت الطريق أو نحو ذلك فأنما حلل . فيتحلل بمجرد حصول شئ . مما شرطه ، بدون فداء ، وبعض الصحابة كابن عمر منع الاشتراط في الحج ، باجتهاده مع أن الرسول ﷺ أفقئ ضباعة بنت الزبير بالاشتراط فقال لها حجى واشترطى وقول الله تعالى حيث حبستنى وكانت شكيت له أنها مريضة وتريد الحج

(٤) المبتوتة هى المطلقة طلاقا بائنا وليس لها إلا مؤخر المهر ونفقة العدة .

وإذا كان كذلك فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ بعد موته من غير أن يكون النبي ﷺ داعياً له ولا شافعاً فيه فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته كما كان يشرع في حياته ، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به ، فلما مات لم يتوسلوا به ، بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحض من المهاجرين والأنصار في عام الرمادة المشهور لما اشتد بهم الجذب حتى حلف عمر لا يأكل سمناً حتى يخضب الناس ، ثم لما استسقى بالناس قال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع شهرته ، وهو من أظهر الاجتماعات الإقرارية ، ودعا بمثله معاوية بن أبي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس ، فلو كان توسلهم بالنبي ﷺ بعد مماته كتوسلهم في حياته لقالوا : كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ؟ ونعدل عن التوسل بالنبي ﷺ الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله ؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم ، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته ، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره ، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته .

وحديث الأعمى حجة لعمر وأ عامة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبي ﷺ ودعائه لا بذاته ، وقال له في الدعاء قل اللهم فشفعه في ، وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيره أن يتوسل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع بل ببعضه وترك سائر المتضمن للتوسل بشفاعته ، كان ما فعله عمر بن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله ﷺ ، وكان المخالف لعمر محجوجاً بسنة رسول الله ﷺ ، وكان الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ حجة عليه لاله والله أعلم .

وأما القسم الثالث مما يسمى توسلاً فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاً يحتاج به أهل العلم - كما تقدم بسط الكلام على ذلك - وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم ، فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي ﷺ شيئاً ثابتاً لا في الإقسام أو السؤال به ، ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من

المخلوقين ، وإن كان في العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه ، فتكون مسألة نزاع كأن تقدم بيانه ، فيرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، ويبدى كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين ، بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم ، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء ، والمنسكح عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله لا بالأنبياء ولا بغيرهم كما سبق بسط الكلام في تقرير ذلك ، وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لني ولا لغيرني ، وأن هذا النذر نذر شرك لا يوفي به ، وكذلك الحلف بالقرآن^(١) بالمخلوقات لا ينعقد به اليمين ولا كفارة فيه ، حتى لو حلف بالنبي ﷺ لم ينعقد يمينه كما تقدم ذكره ، ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين ، بل نهى عن الحلف بهذه اليمين ، فإذا لم يحز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله ؟

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضا مما منع منه غير واحد من العلماء ، والسنن الصحيحة عن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين تدل على ذلك ، فإن هذا إنما يفعله على أنه قرينة وطاعة وأنه مما يستجاب به الدعاء ، وما كان من هذا النوع فلما أن يكون واجبا ولما أن يكون مستحبا ، وكل ما كان واجبا أو مستحبا في العبادات والادعية فلا بد أن يشرعه النبي ﷺ لآمته ، فإذا لم يشرع هذا لآمته لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا يكون قرينة وطاعة ولا سببا لإجابة الدعاء ، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله فمن اعتقد ذلك في هذا أو في هذا فهو ضال وكانت بدعته من البدع السيئة ، وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما استقرى من أحوال النبي ﷺ وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعا عندهم .

وأیضا فقد تبين أنه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب لإجابة الدعاء وأنه كالسؤال بالسكبة والطور والكرسى والمساجد وغير ذلك من المخلوقات ومعلوم أن سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعا كما أن الإقسام بها ليس مشروعا بل هو

(١) لعل لفظ بالقرآن زائد من سهو الناسخ والا في الكلام حذف (ر) أقول يجوز أن تكون هنا واو محذوفة والتقدير وبالمخلوقات

منهى عنه ، فكما أنه لا يسوع لأحد أن يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ولا يسأله بنفس مخلوق وإنما يسأل بالأسباب التي تناسب إجابة الدغاء كما تقدم تفصيله لكن قد روى في جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم ؛ ولكن ليس في المنقول عن النبي ﷺ شيء ثابت بل كلها موضوعة ، وأما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت ، والحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه وفيه « بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا » رواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال « من قال إذا خرج إلى الصلاة اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرج^(١) أشراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار وأن تدخلني الجنة وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته ، وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد ، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم ، وقد روى من طريق آخر وهو ضعيف أيضاً ، ولفظه لا حجة فيه ، فإن حق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يثيبهم ، وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم ، وبايجابه على نفسه في أحد أقوالهم ، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك ، وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوهم في الغار بأعمالهم فإنه سأله هذا بیره العظيم لوالديه وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة لأن هذه الأعمال أمر الله بها ووعد الجزاء لأصحابها فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقال تعالى (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وقال تعالى (قُلْ أُوْبِتْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وكان ابن مسعود يقول في

(١) الضمير يعود على الخروج المفهوم من قوله (ممشاي هذا)

السحر : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا سحر فاغفر لي .
وأصل هذا الباب أن يقال : الإقسام على الله بشيء من المخلوقات ، والسؤال له به ، إما أن يكون مأموراً به إيجاباً أو استحباباً ، أو منهيًا عنه نهى تحريم أو كراهة ، أو مباحاً لا مأموراً به أو منهيًا عنه : وإذا قيل : إن ذلك مأمور به أو مباح ، فاما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو ببعضها . فن قال إن هذا مأمور به أو مباح في المخلوقات جميعها لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الانس والجن فهذا لا يقوله مسلم . فان قال : بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التي أقسم بها في كتابه . لزم من هذا أن يسأل بالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والآثي ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها — ويسأل الله تعالى ويقسم عليه بالخنس الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ، ويسأل بالنداريات ذروا ، فالخاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالملقسات أمرا — ويسأل بالطور ، وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور — ويسأل ويقسم عليه بالصفات صفا ، وسائر ما أقسم به الله في كتابه فان الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته ، فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيتته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته ، فهو سبحانه يقسم بها لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه ، ونحن المخلوقات ليس لنا أن نقسم بها بالنص والاجماع . بل ذكر غير واحد الاجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهى عنه . ومن سال الله بها لزمه أن يسأله بكل ذكر وأنثى ، وبكل نفس ألهمها بغيرها وتقواها ، ويسأله بالرياح والسحاب والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار والتين والزيتون وطور سينين ، ويسأله بالبلد الأمين مكة ، ويسأله حينئذ بالبيت والصفا والمروة وعرفة ومزدلفة ومنى وغير ذلك من المخلوقات ، ويلزم أن يسأله بالمخلوقات التي عبدت من دون الله ، كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله وما لم يعبد من دونه .

ومعلوم أن السؤال لله بهذه المخلوقات أو الإقسام عليه بها من أعظم البدع

المنكرة في دين الإسلام ، وما^(١) يظهر قبضه للخاص والعام ، ويلزم من ذلك أن يقسم على الله تعالى بالأقسام والعزائم التي تسكتب في الحروز والهياكل^(٢) التي تسكتبها الطريقة^(٣) والمعزومون . بل ويقال : إذا جاز السؤال والإقسام على الله بها فعلی المخلوقات أولى ، فحينئذ^(٤) فتكون العزائم والأقسام التي يقسم بها على الجن مشروعة في دين الإسلام ، وهذا الكلام يستلزم السكفر والخروج من دين الإسلام ومن دين الأنبياء أجمعين .

وإن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات ، إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره ، كما يجوز بعضهم الحلف بذلك ، أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم . قيل له : بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فسلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها ندا لله تعالى ، فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ، ولا يقسم بمخلوق كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت ، وقال : لا تحلفوا إلا بالله ، وفي السنن عنه أنه قال : من حلف بغير الله فقد أشرك ، فقد ثبت بالصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات ، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي .

وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وإن كانت

(١) سياق الأسلوب يقتضى أن يكون هكذا (وما يظهر) الخ (٢) الأقسام جمع قسم وهو اليمين ، والعزائم جمع عزيمة ، وهي الصيغة من الدعاء ونحوه والحروز جمع حرز وهو ما توضع فيه العزائم وغيرها كالأحجية التي يحملها العوام وفيها بعض الآيات القرآنية والدعوات المخصوصة والهياكل جمع هيكل ، وهو صورة الأشياء ، كصورة الحوت أو القط أو الهدد وفيها بعض العزائم والتعاويز ولعل هنا وأوا سقطت قبل كلمة الهياكل والأصل (والهياكل) (٣) الطريقة نسبة إلى الطرق ، وهم أهل الطرق الصوفية ممن ليسوا على شيء من العلم ويعتقدون أن مثل ما سبق من التعاويز وغيرها تنفع حاملها ، والمعزومون منهم جماعة من أصحاب الطريق ومنهم دجالون يتعاطون العزائم حرفة يبنزون بها أموال الجملة والسذج (٤) هذه الفاء زائدة في الأسلوب ولعلها من تحريف الناسخ .

معظمة . قال تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟) وقال تعالى (قُلْ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة : فقال تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ، ويخافون عذابي كما يخافون عذابي ، ويتقربون إلىي كما تقربون إلى . وقد قال تعالى (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ ، فَاولئك همُ الْفَائِزُونَ) فبين أن الطاعة لله والرسول ، فانه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وبين أن الخشية والتقوى لله وحده فلم يأمر أن يخشى مخلوق ولا يتقى مخلوق .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) وقال تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) فبين سبحانه وتعالى أنه كان ينبغي لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ، ويقولوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ، فذكر الرضا بما آتاه الله ورسوله لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ أمره ونهيه وتحليله وتخريمه ووعدده ووعيده . فالحلل ما حله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله . ولهذا قال تعالى (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) فليس لأحد أن يأخذ من الأموال إلا ما أحله الله ورسوله ، والأموال المشتركة بينه كمال النية والغنيمة والصدقات ، عليه أن يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك ، ثم قال تعالى (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ) ولم يقل : ورسوله فإن الحسب هو الكافي ، والله وحده كاف

عباده المؤمنين كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين ، هذا هو القول الصواب الذى قاله جمهور السلف والخلف كما بين فى موضع آخر ، والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه ، فكل من اتبع الرسول فاته كافيه وهاديه وناصره ورازقه ثم قال تعالى (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) فذكر الإيتام لله ورسوله ، لكن وسطه بذكر الفضل فان الفضل لله وحده بقوله (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) ثم قال تعالى (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات فى هذه الأحكام ، لم يجعل لأحد من المخلوقين سواء كان نبيا أو ملكا أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقى .

وقال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ (١) إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ) فقد تهدد سبحانه شيئا (٢) من دون الله ، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركا (٣) فى ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ، ولم يبق إلا للشفاعة وهى حق ، لكن قال الله تعالى (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ) وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة فى الشفاعة يوم القيامة ، إذا أتى الناس آدم وأولى العزم نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم فيردم كل واحد إلى الذى بعده إلى أن يأتوا المسيح فيقول : اذهبوا إلى محمد - عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال ﷺ

(١) كانت كلبة (عنده) ساقطة من الآية فى الأصل الذى علق عليه السيد رشيد فردناها فى هذه الطبعة . والآيات من سررة سبأ وقد سبق بيانها فى موضع سابق .

(٢) لا بد أن يكون أصل الكلام ، فقد تهدد سبحانه من طلب شيئا من دون الله ، أو نحو ذلك (ر) (٣) حق هذه الكلمة أن تكون ، شرك ، بدون ألف لأنها معطوفة على اسم لا النافية للجنس فى قوله ، لا ملك لهم ، واسم لا النافية للجنس مبنى ممنوع من الصرف

« فيأتوني فأذهب إلى ربي ، فإذا رأيته خررت ساجدا وأحمد ربي بمحامد يفتحها على
لأحسنها الآن ، فيقال لي : أي محمد ! ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه ^(١) واشفع
تشفع - قال - فيجد لي حدا فأدخلهم الجنة ، وذكر تمام الخبر . فبين المسيح أن محمدا هو
الشافع المشفع ، لأنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وبين محمد عبد الله
ورسوله أفضل الخلق وأوجه الشفعاء وأكرمهم على الله تعالى أنه ياتي فيسجد ويحمد
لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له ، فيقال له : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ،
وذكر أن ربه يجد له حدا فيدخلهم الجنة . وهذا كله يبين أن الأمر كله لله هو الذي
يلزم الشفيع بالإذن له في الشفاعة ، والشفيع لا يشفع إلا بمن يأذن ^(٢) ثم يجد للشفيع
حدا فيدخلهم الجنة . فالأمر بمشيئته وقدرته واختياره ، وأوجه الشفعاء وأفضلهم هو
عنده الذي فضله على غيره واختاره واصطفاه بكامل عبوديته وطاعته وإنابته وموافقته
لربه فيما يحبه وبرضاه .

وإذا كان الإقسام بغير الله والرغبة إليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هي من الأحكام
التي اشتركت المخلوقات فيها فليس لمخلوق أن يقسم به ولا يتقي ولا يتوكل عليه ،
وإن كان أفضل المخلوقات ، ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة والنبين ، فضلا عن
غيرهم من المشايخ والصالحين .

فالسؤال لله تعالى بالمخلوقات ^(٣) إن كان بما أقسم به وعظمه من المخلوقات فيسوغ
السؤال بذلك كله وإن لم يكن سائغا لم يحز أن يسأل بشيء من ذلك ، والتفريق في
ذلك بين معظم ومعظم كتفريق من فرق يجوز الحلف ببعض المخلوقات دون بعض
وكما أن هذا فرق باطل فكذلك الآخر . ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به وبين
ما لا يؤمن به ، قيل له فيجب الإيمان بالملائكة والنبين ، ويؤمن بكل ما أخبر به

فكذلك ما عطف عليه ^(١) هذه الهاء هاء للسكت يؤق بها عند الوقف إذا كان الحرف
الموقوف عليه متحركا لا يمكن مده وهنا حذف المد بسبب جزم الفعل في جواب الأمر
فأتى بها السكت ^(٢) لا بد أن يكون سقط هنا بعض الكلمات والاصل (فيمن يأذن له الله فيه)
^(٣) هذه الجملة المؤلفة من بضعة أسطر فيها عسلة واضطراب ، فلا شك أن فيها تحريفا
وغلطا وأنه سقط منها بعض الكلم ^{أهـ} . تقديره (كالشمس والقمر والليل والصبح
والنهار والرياح ونحو ذلك) .

الرسول مثل منكر ونكير والخور العين والولدان وغير ذلك ، أفيجوز أن يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الايمان بها ؟ أم يجوز السؤال بها كذلك ؟ .
فتبين أن السؤال بالأسباب إذا لم يكن المسئول به سببا لإجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق ، كما لا فرق بين القسم بمخلوق ومخلوق ، وكل ذلك غير جائز . فتبين أنه لا يجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء والله أعلم .

وأما قوله تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) فكانت اليهود تقول للمشركين : سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم : لم يكونوا يقسمون على الله بذاته ولا يسألون به ، أو ^(١) يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الأُمي لتنبئه ونقتل هؤلاء معه . هذا النقل الثابت عند أهل التفسير وعليه يدل القرآن فإنه قال تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ) والاستفتاح الاستنصار وهو طلب الفتح والنصر ، فطلب الفتح والنصر به هو أن يبعث فيقاتلونهم معه ، فهذا ينصرون ، ليس هو باقسامهم به وسؤالهم به ، إذ لو كان كذلك لكانوا إذا سألوا أو أقسموا به نصروا ، ولم يكن الأمر كذلك ، بل لما بعث الله محمدا ﷺ نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه .

وما ذكره بعض المفسرين من أنهم كانوا يقسمون به أو يسألون به فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له . وقد ذكرنا طرفا من ذلك في دلائل النبوة (وفي كتاب) الاستعانة الكبير (وكتب) السير ، ودلائل النبوة والتفسير مشحونة بذلك . قال أبو العالية وغيره : كان اليهود إذا استنصروا بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى تغلب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وروى محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الانصاري عن رجال من قومه قالوا : بما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداة ما كنا نسمع من رجال يهود ،

(١) لعل الصواب بل يقولون ، وسيأتي ما يؤيده (ر) .

وكنّا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . كثيرا ما كنّا نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله محمداً رسولاً من عند الله أجنبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل (هؤلاء ^(١)) قبل (الآيات التي في البقرة) ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل ^(٢) يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين .

ولم يذكر ابن أبي حاتم وغيره من جمع كلام مفسري السلف إلا هذا ، وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن أحد من السلف ، بل ذكروا الاخبار به ، أو سؤال الله أن يبعثه ، فروى ابن أبي حاتم عن أبي رزين عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال : يستظهرون بقولون نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك ، يكذبون . وروى عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال : كانوا يقولون : إنه سيأت نبي (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) وروى بإسناده عن أبي إسحاق : حدثنا محمد بن أبي محمد قال أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور ودود بن سلة يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا شيء نعرفه وما هو بالذي كنّا نذكر لكم

(١) الكلام هنا غلط كما يرى القاري ، وصححه نزلت هذه الآيات التي في البقرة .

(٢) كانت كلمة قبل ناقصة من الآية في الطبعة الثانية التي علق عليها السيد رشيد رضا

فزدناها في هذه الطبعة .

فأنزل الله تعالى من قولهم (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وروى بإسناده عن الربيع بن أنس عن أبي العالية . قال كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمدا ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الله (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وأما الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود فعادت بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم . فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان . فلما بعث النبي ﷺ كفروا به ، فأنزل الله تعالى (وَكَاُنُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه . وقال : أدت الضرورة إلى إخراجه . وهذا مما أنكره عليه العلماء ، فإن عبد الملك بن هارون من أضعف الناس ، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك بل كذاب . وقد تقدم ما ذكره يحيى بن معين وغيره من الآثمة في حقه .

قلت : وهذا الحديث من جعلتها (١) ، وكذلك الحديث الآخر الذي يرويه عن أبي بكر كما تقدم . وما يبين ذلك أن قوله تعالى (وَكَاُنُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولا كبنى قينقاع وقريظة والنضير ، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج ، وهم الذين عاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة ، ثم لما نقضوا العهد حاربهم ، فحارب أولا بني قينقاع ثم النضير - وفيهم نزلت سورة الحشر - ثم قريظة عام الخندق . فكيف يقال نزلت في يهود خيبر وغطفان ؟ فإن هذا من كذب جاهل لم يحسن كيف يكذب

(١) أى من جملة كذباته المفهومة مما تقدم .

وما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء . وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب ، ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعي الصادقين على نقله .

وما ينبغي أن يعلم أن مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضى السؤال به والاقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز أن يعتمد عليه في الأحكام ، لأنه أولا لم يثبت وليس في الآية ما يدل عليه ، ولو ثبت لم يلزم أن يكون هذا شرعا لنا فإن الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه (له) وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا (لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور ، ولفظ الآية إنما فيه أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وهذا كقوله تعالى : (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) ، والاستفتاح طلب الفتح وهو النصر ، ومنه الحديث المأثور أن النبي ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر بهم أى بدعائهم كما قال « وهل ترزقون وتنصرون إلا بضغفائكم ؟ بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم » وهذا قد يكون بأن يطلبوا من الله تعالى أن ينصرهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، بأن يعجل بعث ذلك النبي إليهم ليفتصروا به عليهم ، لا لأنهم أقسموا على الله وسألوا به ، ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) فلم ترد الآثار التي تدل على أن هذا معنى الآية لم يحز لأحد أن يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل لأنه لا دلالة فيها عليه . فكيف وقد جاءت الآثار بذلك ؟

وأما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون ، فقد بينا أنه شاذ وليس هو من الآثار المعروفة في هذا الباب ، فإن اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم ، وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقا كما كانت قرينة حلفاء الأوس ، وكانت النصير حلفاء الخزرج . وأما كون اليهود كانوا ينصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه ، والله تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك ، فقال تعالى (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أُنْبَأُوا نَقَسُهُمْ إِلَّا لِمَنْ جَاءَ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ ، وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (فاليهود - من حيث ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس - لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم ، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه . قال تعالى (يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ زِينَتَكَ وَارْتَعْزِزْ إِلَى مَوَظِعِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ . فَأَمَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) فإذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره في حياته عليه السلام وبعد موته يقسمون بذاته بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته فكيف يقال في دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم ؟

وقد قال تعالى (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالْمسيح وعزير وغيرهما فنهى الله عن ذلك وأخبر تعالى ان هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه ، وانهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويلة عنهم . وقد قال تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره مسجداً وأن يتخذ عيداً ، وقال في مرض موته : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا أخرجاه في الصحيحين . وقال : اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، رواه مالك في موطئه وقال : لا تطروني^(١) كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله ، متفق عليه . وقال : لا تقولوا : ماشاء الله وشاء محمد . بل ماشاء الله ثم ماشاء محمد ، وقال له بعض الأعراب : ماشاء الله وشئت . فقال : أجمعلني لله ندا ؟ بل ماشاء الله وحده ، وقد قال الله تعالى له (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوْمُ) وقال تعالى (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) وقال تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) وهذا تحقيق التوحيد مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله وأعلام منزلة عند الله .

وقد روى الطبراني في معجمه الكبير أن منافقا كان يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق . فقال له النبي ﷺ : إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله ، وفي صحيح مسلم في آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس : إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك ، وفي صحيح مسلم أيضا وغيره أنه قال : لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها ، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وله طرق متعددة عن غيرهما أنه قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ فقال مالك : إن كان أراد القبر فلا يأتيه ، وإن أراد المسجد فليأته . ثم ذكر الحديث : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، ذكره القاضي إسماعيل في مبسوطه . ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم ينعقد يمينه ، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء

(١) أى لا تمدحوني وتمجدوني .

والملائكة وغيرهم ، ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم ،
والأنبياء حق ، وللمؤمنين حق ، ولبعضهم على بعض حق . فحقه تبارك وتعالى أن
يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين
ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ، ولا يجعلوا لله ندا لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه
ولا الاستعانة به ، كما في الصحيحين أنه قال ﷺ : من مات وهو يدعو ندا من دون
الله دخل النار ، وسئل أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ،
وقيل له : ما شاء الله وشئت . فقال أ جعلتني لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده ، وقد قال
تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى
(فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، (وقال الله لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِنَّمَا هُوَ
إِلَهُ وَاحِدٌ فَيَأْتِي فَارْهَبُونِ) ، (فَيَأْتِي فَاعْبُدُونِ) وقال تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ،
وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) وقال تعالى في فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ) وقال تعالى (وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشِدُّ حُبًا لِلَّهِ) وقال تعالى (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي) وقال تعالى
(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) .

ولهذا لما كان المشركون يخوفون إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه قال
تعالى (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ : أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ؟ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ * وَكَيْفَ أَخَافُ
مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَوَيْلٌ
لِلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ هَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ
هُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية
(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينالم
يظلم نفسه ؟ فقال لهم النبي ﷺ : إنما ذاك الشرك كما قال العبد الصالح (١) : (يَا بَنِيَّ

لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) وقال تعالى : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ
وَيَتَّقْهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ، فجعل الطاعة لله والرسول فانه من يطع الرسول فقد
أطاع الله ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده فلا يخشى إلا الله ، ولا يتقى إلا الله ،
وقال تعالى (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) ، وقال تعالى :
(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)
فجعل سبحانه الإيتاء لله والرسول في أول الكلام وآخره كقوله تعالى (وَمَا آتَاكُمْ
الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) مع جعله الفضل لله وحده ، وهو تعالى وحده
حسبهم لا شريك له في ذلك . وروى البخارى عن ابن عباس في قوله (حَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قال : قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد حين (قَالَ لَهُمُ النَّاسُ
إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ومعنى ذلك عند
جماهير السلف والخلف أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . كما
بسط ذلك بالأدلة ، وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله
في أمره ونهيه ووعدته ووعيده ، فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه
الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله ، فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله
ورسوله ونرضى الله ورسوله ، قال تعالى (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا
مُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) وقال تعالى (مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ
فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وقال تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ
إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) وفي
الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة

الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما ، ومن كان يحب المراء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار ، وقد قال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) فالإيمان بالله والرسول ، والتعزير والتوقير للرسول وتعزيره نصره ومنعه ، والتسبيح بكرة وأصيلًا لله وحده ، فإن ذلك من العبادة والعبادة هي لله وحده ، فلا يصلي إلا لله ولا يصام إلا لله ولا يحج إلا إلى بيت الله ، ولا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة ، لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله باذن الله ، ولا يتنذر إلا لله ، ولا يحلف إلا بالله ، ولا يدعى إلا الله ، ولا يستغاث إلا بالله .

وأما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان والنبات والمطر والسحاب وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق ، كما جعل الرسل واسطة في التبليغ ، بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الأسباب ، وليس في المخلوقات شيء يستقل بأبداع شيء بل لا بد للسبب من أسباب آخر تعاونه ، ولا بد من رفع المعارض عنه ، وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، بخلاف الرسالة فإن الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته إلى عباده .

وأما جعل الهدى في قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى (إِنَّ تَحْرِيصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) وكذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى المحل قابلاً له ، وإلا فلو استغفر النبي للكفار والمتأففين لم يغفر لهم ، قال الله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) .

وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل في أمره ونهيه ووعدته ووعيدته وخبره ، فعلينا أن نصدقهم في كل ما أخبروا به ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا ، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل لانفرق بين أحد منهم ، ومن

سب واحدا منهم كان كافرا مرتدا مباح الدم .

وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بيننا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص ، فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم على الله بهم ولا يتوسل بذواتهم . وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم وطاعتهم وموالائهم وتعزيرهم وتوقيرهم ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حللوه ونحریم ما حرموه .

والتوسل بذلك على وجهين (أحدهما) أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال ، لحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربهم وقد تقدم بيان ذلك (والثاني) التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه ، فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ومثل هذا كقول المؤمنين (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) فانهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وأمثال ذلك كثير .

وكذلك التوسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته فانه يكون على وجهين (أحدهما) أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه في حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحا ثم الخليل ثم موسى الكليم ثم عيسى . ثم يأتون محمدا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم فيطلبون منه الشفاعة .

(والوجه الثاني) أن يكون التوسل مع ذلك يسأل (١) الله تعالى بشفاعته ودعائه كما في حديث الأعمى المتقدم بيانه وذكره ، فانه طلب منه الدعاء والشفاعة ، فدعاه الرسول وشفع فيه وأمره أن يدعو الله فيقول : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك به ،

(١) لعل أصله بأن يسأل .

اللهم فشفعه في ، فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته ، بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول ، والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه ، فهذا توسل بما لم يوجد وإنما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه . ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء كما تقدم ، فإن عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء العباس ، فانهم استشفعوا جميعاً ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم ، فصار التوسل بطاعته والتوسل بشفاعته كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ولا يكون بدون ذلك . فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة لا ينافي في واحد منها أحد من أهل العلم والإيمان .

ودين الإسلام مبني على أصليين ، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلهاً آخر ، فلا تحب مخلوقاً كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تحشاه كما تحشى الله ، ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله ، وهو من الذين يربهم يعدلون ^(١) وقد جعل مع الله إلهاً آخر ، وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض . فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض ، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، قال تعالى (^(٢) إِنْ كُنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ، قُلْ لَا أَشْهَدُ) وقال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِيجُوهَ كُحُبَ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) فصاروا مشركين لأنهم أحبوه كحبه ، لأنهم قالوا إن آلهتهم خلقوا كخلقه . كما قال تعالى (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ، فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟) وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي ، أي ما جعلوا الله شركاء خلقوا

(١) يشير المصنف إلى قوله تعالى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، أي يجعلون له عدلاً ، وهو بكسر العين المعادل والنظير (ر)

(٢) صحة الآية دأنتكم ، وتماها قل د أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأرسي إلى هذا القرآن لا نذركم به ومن بلغ أنتكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإني بريء مما تشركون ، من سورة الأنعام .

كخلقه ، فانهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا كخلقه ، وإنما يجعلونهم شفعا ووسائط قال تعالى (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ . قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال صاحب يس (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ ! مَا أَخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون ؟ ! إِنْ إِذَا لَنِي ضَلَالٌ مُبِينٌ ! ! إِنْ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) .

(الأصل الثاني) أن نعبد بهما شرع على السنة رسله ، لا نعبد به إلا بواجب أو مستحب ، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك . والدعاء من جملة العبادات . فن دعا المخلوقين من الموقى والغائبين واستغاث بهم - مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب - كان مبتدعا في الدين ، مشركا برب العالمين مبتدعا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، فان ذم من خالفه وسعى في عقوبته كان ظلما جاهلا معتديا ، وان حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله وكان حكمه منقوصا باجماع المسلمين وكان إلى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه إلى أن ينقذ له هذا الحكم ويعان عليه ، وهذا كله يجمع عليه من المسلمين ، ليس فيه خلاف لابين الأئمة الأربعة ولا غيرهم .

وقد بسط الكلام على هذه الأمور في مجلدات ، من جملتها مصنف ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكم وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز . وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن إيراد شيء من فصوله ها هنا ، لافراد الكلام في هذا الموضع على قواعد التوحيد ومتعلقاته ، وسيأتى إيراد ما اختصر منه وحررت فصوله في ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسيس الحاجة إلى معرفة هذا الأمر المهم وبالله التوفيق .

وكنت وأنا بالديار المصرية في سنة إحدى عشرة وسبع مائة قد استفتيت عن التوسل بالنبي ﷺ فكتبت في ذلك جوابا مبسوطا ، وقد أحبيت إirاده هنا لما في ذلك من مزيد الفائدة فان هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك

والغلو ، كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نورا على نور والله المستعان .
(وصورة السؤال) : المسؤول من السادة العلماء أئمة الدين أن يبينوا ما يجوز
وما لا يجوز من الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والصالحين .

✓ (وصورة الجواب) : الحمد لله رب العالمين : أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ
يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة
ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين
واستفاضت به السنن من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته ويشفع أيضا لعموم
الخلق فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من
الأنبياء والصالحين ، لكن ما له فيها أفضل مما لغيره ، فانه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم
على ربه عز وجل ، وله من الفضائل التي ميزه الله بها على سائر النبيين ما يضيق هذا
الموضع عن بسطه ، ومن ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ،
وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة ، منها في الصحيحين أحاديث متعددة ، وفي السنن
والمسانيد مما يكثر عدده .

وأما الوعيدية ^(١) من الخوارج والمعتزلة فزعموا ان الشفاعة انما هي للمؤمنين
خاصة في بعض الدرجات ، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقا .
وأجمعوا على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به في حياته بحضرته ،
كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان اذا قحطوا .
استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم انا كنا إذا جددنا نتوسل اليك بنبينا
فقسقينا ، وإننا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . فيسقون . وفي البخاري أيضا عن ابن
عمر أنه قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا انظر الى وجه النبي ﷺ يستسقى فما ينزل
حتى يجيش ^(٢) كل ميزاب .

(١) الوعيدية نسبة إلى الوعيد وهو ضد الوعد ، أي الذين يغلبون جانب الوعيد على
جانب الوعد ويتشددون في الدين ويغلون فيه خارجين على جماعة المسلمين التي لازمت الاعتدال
ولم تغل ولم تفرط .

(٢) يجيش كل ميزاب أي يفيض كل مسيل الماء

(٩ - التوسل والوسيلة)

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال^(١) اليتامى عصمة للأرامل^(٢) والتوسل بالنبي ﷺ الذي ذكره عمر بن الخطاب قد جاء مفسراً في سائر أحاديث الاستسقاء وهو من جنس الاستشفاع به، وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته، ونحن نقدمه بين أيدينا شافعاً وسائلاً لنا، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك معاوية بن أبي سفيان لما أجذب الناس بالشام استسقى يزيد بن الأسود الجرشي فقال: اللهم إنا نستشفع أو نتوسل بخيارنا، يا يزيد! ارفع يدك فرفع يديه ودعا، ودعا الناس حتى سقوا. ولهذا قال العلماء يستحب أن يستسقى باهل الدين والصلاح، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ فهو أحسن.

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقة التوسل بدعائه، فانه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه، كما أن المسلمين لما أجذبوا على عهد النبي ﷺ دخل عليه أعرابي فقال: يا رسول الله! هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغثنا. فرفع النبي ﷺ يديه وقال (اللهم أغثنا! اللهم أغثنا! اللهم أغثنا!) وما في السماء قزعة^(٣) فذشأت سحابة من جهة البحر فطروا أسبوعاً لا يرون فيه الشمس، حتى دخل الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله انقطعت السبل وتهدم البنيان، فادع الله يكشفها عنا. فرفع يديه وقال اللهم حولنا ولا علينا، اللهم على الآكام^(٤) والظراب ومنابت الشجر وبطون الأودية، فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب. والحديث مشهور في الصحيحين وغيرهما. وفي حديث آخر في سنن أبي داود وغيره أن رجلاً قال له: انا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. فسبح رسول الله ﷺ حتى رأى ذلك في وجوه

(١) الثمال بكسر التاء الغياث أى مغيث اليتامى.

(٢) الأرامل جمع أرملة وهى المرأة المحتاجة أو المسكينة، أو الرجال الضعفاء المحتاجون

(٣) القزعة القطعة الصغيرة من الغمام الذى يحمل المطر وتسمى السحابة أيضاً.

(٤) الآكام جمع أكمة وهى الأرض المرتفعة والظراب جمع ظرب بوزن كسف وهو

الجلل الصغير أو المنبسط أو الأودية جمع واد وهو الأرض المبسوطة بين الجبلين، أى دعا النبي ﷺ بأن يجعل الله المطر فى هذه الأماكن البعيدة عن العمران حتى لا تلتف الأبنية ويتعذر على الناس السير وقضاء المصالح وقد اجاب الله دعاءه كما سأتى.

أصحابه . وقال « ويحك أتدري ما الله ؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص في كلام النبي ﷺ وأصحابه هو الاستشفاع بدعائه وشفاعته ، ليس هو السؤال بذاته ، فانه لو كان هذا السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق ، ولكن لما كان معناه هو الأول ، أنكر النبي ﷺ قوله « نستشفع بالله عليك » ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه ان يقضى حاجة الطالب ، والله تعالى لا يسأل أحدا من عباده ان يقضى حوائج خلقه ، وان كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى في مثل قوله .

شفيعي إليك الله لارب غيره وليس إلى رد الشفيع سبيل

وكذلك بعض الاتحادية^(١) ذكر أنه استشفع بالله سبحانه إلى النبي ﷺ وكلاهما خطأ وضلال ، بل هو سبحانه المسئول المدعو الذي يسأله كل من في السموات والأرض ، ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه ، وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فأنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى ، فالرسل يبلغون عن الله أمره ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن بايعهم فقد بايع الله . قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ - وقال تعالى - مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) .

وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما يجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله ، قال ﷺ في الحديث الصحيح « على المرء المسلم السمع والطاعة في عسره ومنشطه^(٢) ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة » وقال ﷺ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ،

وأما الشافع فسائل لا يجب طاعته في الشفاعة وإن كان عظيما ، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سأل بريرة أن تمسك زوجها ولا تفارقه لما أعتقت ، وخيرها

(١) الاتحادية الذين يقولون بوحدة الوجود وأن الخلق نشأ عن ذات الله فهو والخلق شيء واحد

(٢) المنشط ما ينشط له الإنسان ويفرح به ويكون في صالحه ، والمكره ما يكرهه الإنسان ولا تكون نفسه راضية به لأنه تكليف شاق أو لأنه يمنع النفس بعض لذاتها والجسم بعض مطالبه .

النبي ﷺ فاختارت فراقه ، وكان زوجها يحبها فجعل يبكي ، فسألها النبي ﷺ أن تتركه فقالت : أنا أمرني ؟ فقال : لا ! إنما أنا شافع ، وإنما قالت أنا أمرني ؟ وقال : إنما أنا شافع لما استقر عند المسلمين أن طاعة أمره واجبة بخلاف شفاعته ، فانه لا يجب قبول شفاعته ولهذا لم يلها النبي ﷺ على ترك قبول شفاعته ، فشفاعة غيره من الخلق أولى أن لا يجب قبولها ؛ والخالق جل جلاله أمره أعلى وأجل من أن يكون شافعا إلى مخلوق بل هو سبحانه أعلى شأننا من أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه . قال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ هَـ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) ودل الحديث المتقدم على أن الرسول ﷺ يستشفع به إلى الله عز وجل ، أي يطلب منه الشفاعة في الدنيا والآخرة ، فأما في الآخرة فيطلب منه الخلق الشفاعة في أن يقضى الله بينهم وفي أن يدخلوا الجنة ، ويشفع في أهل الكبائر من أمته ، ويشفع في بعض من يستحق النار أن لا يدخلها ويشفع في بعض من دخلها أن يخرج منها .

ولا نزاع بين جماهير الأئمة أنه يجوز أن يشفع لأهل الطاعة المستحقين الثواب ، ولكن كثيرا من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، فقالوا : لا يشفع لأهل الكبائر . بناء على أن أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها . ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه ﷺ يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد . بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان ، لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون في حياته بمعنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم فكان توسلهم بدعائه والاستشفاع به طلب شفاعته والشفاعة دعاء .

فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته مثل الاقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم فليس هذا مشهورا عند الصحابة والتابعين ، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهم من أصحاب

رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حيا كالعباس وكيزيد بن الأسود ، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي ﷺ لا عند قبره ولا غير قبره بل عدلوا الى البديل كالعباس وكيزيد بل كانوا يصلون عليه في دعائهم ، وقد قال عمر : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتنسينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . فعملوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه ، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره ويتوسلوا هناك ويقولوا في دعائهم : بالجاء ونحو ذلك من الالفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به ، فيقولون : نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاء نبيك ، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس .

وروى بعض الجهال عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ، فان جاهي عند الله عظيم . وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث ، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين ، وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا - وقال تعالى - إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَرَجِيهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يخطبه به الأولون والآخرون ؟ وصاحب الكوثر والخوض المورد الذي آنيته عدد نجوم السماء ، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ؟ وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وألو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويتقدم هو إليها ، وهو صاحب اللواء - آدم ومن دونه تحت لوائه ، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل ، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، ذو الجاه العظيم ﷺ وعلى آله .

ولكن جاء المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاء المخلوق عند المخلوق ، فانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ه لقد أحصاهم وعدهم عداً) وقال تعالى (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ه فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) . والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب ، والله تعالى لا شريك له ، كما قال سبحانه (قل : ادعوا الذين زعمتم من دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ ثِقَلِ ذُرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ه وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

وقد استفاضت الأحاديث عن النبي ﷺ أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد ، ولعن من يفعل ذلك ، ونهى عن اتخاذ قبره عيدا : وذلك لأن أول ما حدث الشرك في بني آدم كان في قوم نوح . قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون وكلهم على الإسلام . وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن نوحا أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، وقد قال الله تعالى عن قومه إنهم قالوا (لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ه وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) قال غير واحد من الساف : هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا عن ابن عباس ، وذكر أن هذه الآلهة صارت إلى العرب ، وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الأصنام . فلما علمت الصحابة رضوان الله عليهم أن النبي ﷺ حسم مادة الشرك بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد وإن كان المصلي يصلي لله عز وجل ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس ، وإن كان المصلي إنما يصلي لله تعالى ، وكان الذي يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب إلى الشرك من الذي لا يقصد إلا الصلاة

الله عز وجل - لم يكونوا يفعلون ذلك . وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته ومحبته وموالاته ، والتوسل بدعائه وشفاعته ، فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا . فلما لم يفعل الصحابة رضوان الله عليهم شيئاً من ذلك ، ولادعوا بمثل هذه الادعية ، وهم أعلم منا وأعلم^(١) بما يحب الله ورسوله ، وأعلم بما أمر الله به ورسوله من الادعية ، وما هو أقرب من الإجابة منا ، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي ﷺ - دل عدو لهم^(٢) عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول إن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكناً .

وقد قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على^(٣) قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، رواه مالك في موطئه ورواه غيره ، وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني ، وفي الصحيحين أنه قال في مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما فعلوا . قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وفي صحيح مسلم عن جندب أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، فان الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فانما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله ، .

وقد روى الترمذي حديثاً صحيحاً عن النبي ﷺ أنه علم رجلاً أن يدعو فيقول : اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد يارسول الله ! إني أتوسل بك إلى ربّي في حاجتي ليقضيهالي ، اللهم شفعه في . وروى الثاني نحو هذا الدعاء ، وفي الترمذي وابن ماجه عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله

- (١) قوله ، وأعلم ، زائد . والا فاصل العبارة : وهم أعلم منا بالله ورسوله ، وأعلم بما يحب الله ورسوله الخ فقد سقط لفظ ، بالله ورسوله ، من الناسخ . وسيأتي نظيره بعد ذلك
- (٢) هذا جواب قوله ، فلما علمت الصحابة ، الخ .
- (٣) كانت لفظة ، على ، ساقطة في الطبعة الثانية فزدناها هنا .

أن يعافيني فقال : ان شئت دعوت ، وإن شئت صبرت ، فهو خير لك ، فقال : فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا رسول الله يا محمد ! اني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي ، اللهم فشفعه في ، قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائي عن عثمان بن حنيف ولفظه ان رجلا أعمى قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يكشف عن بصري . قال : فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد ! اني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصري اللهم فشفعه في ، قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد الخطمي المديني قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ! ادع الله أن يعافيني فقال : إن شئت أخرت ذلك فهو خير لاخرتك ، وإن شئت دعوت لك ، قال : لا ! بل ادع الله لي ، فأمره أن يتوضأ وأن يصلي ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضي ، اللهم فشفعني فيه وشفعه في . قال ففعل الرجل فبرأ .

فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء فمن الناس من يقول : هذا يقضي جواز التوسل به مطلقا حيا وميتا . وهذا يحتاج به من يتوسل بذاته بعد موته وفي نفسه ، ويظن هؤلاء ان توسل الأعمى والصحابه في حياته كان بمعنى الإقسام به على الله أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته ان يقضي حوائجهم ، ويظنون أن التوسل به لايحتاج إلى أن يدعو هو لهم ولا إلى أن يعطوه ، فسواء عند هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع ، الجميع عندهم توسل به ، وسواء أطاعوه أو لم يطيعوه ، ويظنون أن الله تعالى يقضي حاجة هذا الذي توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول ، كما يقضي حاجة هذا الذي توسل بدعائه ودعا له الرسول ﷺ ، إذ كلاهما يتوسل به عندهم ، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبي ﷺ فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى ، وان ما أمر به الأعمى مشروع لهم . وقول هؤلاء باطل شرعا وقدرًا ، فلا هم موافقون لشرع الله ولا مايقولونه مطابق لخلق الله .

ومن الناس من يقولون : هذه قضية عين^(١) يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط^(٢) الحكم ، لا يثبت الحكم بهافيا هو مخالف لها لأمثال لها . والفرق ثابت شرعا وقدر بين من دعا له النبي ﷺ ، وبين من لم يدع له ، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر ، وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ فلماذا قال في دعائه : اللهم فشفعه في . فلم أنه شفيع فيه ، ولفظه « إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك ، فقال : ادع لي . فهو طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ، فأمره النبي ﷺ أن يصلي ويدعو هو أيضا لنفسه ويقول في دعائه . اللهم فشفعه في . فدل ذلك على أن معنى قوله : أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد . أي بدعائه وشفاعته كما قال عمر : اللهم انا كنا إذا أجد بنا توسلنا إليك بنبينا فنتسقين . فالخديشان معناهما واحد ، فهو ﷺ علم رجلا أن يتوسل به في حياته ، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا .

ثم أنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه . فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء ، والمتوسل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول - لم يعدلوا عن التوسل به ، وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وأقربهم إليه وسبلة ، إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله . وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول . بمنزلة ذلك الأعمى ، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى . فعدو لهم عن هذا ، إلى هذا ، مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، فانهم أعلم منا بالله ورسوله ، وبحقوق الله ورسوله ، وما يشرع من الدعاء وينفع ، وما لم يشرع ولا ينفع ، وما يكون أنفع من غيره ، وهم في وقت ضرورة ومحنة وجذب يطلبون تفريج الكربات ، وتيسير العسير ، وإزالة الغيث بكل طريق ممكن - دليل^(٣) على أن المشروع ماسأله دون ماتركه . ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ماتركه ، وذلك أن التوسل به حيا هو من جنس مسأله أن يدعو لهم ، وهذا مشروع . فما زال المسلمون يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم . وأما بعد موته ، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء ، لا عند قبره ، ولا عند غير قبره ، كما

(١) أي حادثة معينة (٢) مناط الحكم هو سببه وعلته وثبوت الحكم هنا قياس في أمثال الحادثة المعينة إنما يكون بالقياس على الأصل لاتحاد السبب والعلة ولكنه قياس مع الفارق (٣) هذا خبر قوله : فعدو لهم (ر)

يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين ، يسأل أحدهم حاجته ، أو يقسم على الله به ونحو ذلك ، وإن كان قد روى في ذلك حكايات عن بعض المتأخرين .

بل طلب الدعاء مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن ، حتى قال رسول الله ﷺ لعمر لما استأذنه في العمرة « لا تنسنا يا أخى من دعائك » - ان صح الحديث - وحتى أمر النبي ﷺ أن يطلب من أويس القرني أن يستغفر للطالب وإن كان الطالب أفضل من أويس بكثير ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « إذ سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة ، مع أن طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق ، بل هو تعليم لأمته ما ينتفعون به فى دينهم ، وبسبب ذلك التعليم والعمل بما علمهم يعظم الله أجره ، فانا اذا صلينا عليه مرة صلى الله علينا عشرا ، وإذا سألنا الله له الوسيلة ، حلت علينا شفاعته يوم القيامة ، وكل ثواب يحصل لنا على أعمالنا ، فله مثل أجرنا من غير أن ينقص من أجرنا شيء ، فإنه ﷺ قال « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، وهو الذى دعا أمته إلى كل خير ، وكل خير تعمله أمته له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون اليه ثواب أعمالهم ولا يحجون عنه ولا يتصدقون ولا يقرؤون القرآن ويهدون له ، لأن كل ما يعمل المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له ﷺ مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، بخلاف الوالدين ، فليس كل ما عمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل أجره ، ولهذا يهدى الثواب لوالديه وغيرهما (١) .

(١) وهذه المسألة اختلف فيها الفقهاء فقال بعضهم بجواز الاهداء ونفعه قياسا على الحج عن الوالدين والصوم عنهما . وقال آخرون لا يجوز ولا ينفع لقوله تعالى « وأن ليس للانسان الا ما سعى » والصوم والحج عن الوالدين لا ينفع في هذا كما ينفعه أى عمل يهدى لى انسان ، لأن الاولاد يعدون من عمل الانسان كما فى حديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية وعلم ينفذ به وولد صالح يدعو له » والصيام والحج كالدعاء . والاجنبى ليس كالولد فيقاس عليه (ا ه ر) . وأقول : لا يصح قياس الأعمال التى تهدى

ومعلوم أن الرسول ﷺ مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ) فهو ﷺ لا يرغب إلى غير الله ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون ، هؤلاء من أمتي وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقه ، والرقية من نوع الدعاء ، وكان هو ﷺ يرق نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقه ، ورواية من روى في هذا لا يرقون ، ضعيفة غلط . فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمتي بالدعاء أنه ليس من

إلى الأموات على الصيام والحج ، لأن الصيام والحج ورد النص بجوازهما ونفعهما من الولد فقط بعد وجوب الحج والصيام على الميت وعجزه بالموت عن أدائها فيقضيهما الأولاد عنه ، إنما الذي ينفع الميت مطلقا سواء كان والدا أو غيره هو الدعاء له ، وإذا فعل الداعي قبل الدعاء فعلا يجعل دعاءه أقرب إلى الإجابة كصلاة وقراءة قرآن وصدقة ونحو ذلك فلا بأس بهذه الأعمال لأنها تساعد على إجابة الدعاء ونفعه للميت ، أما أن يقرأ الحى القرآن أو يصلى الصلاة ثم يقول . وهبت ثواب ما فرأت أو صليت إلى حضرة النبي ﷺ أو أبى أو أمى أو الميت فلان فهذا لا يصل نفعه إلى الميت ولا تقبل هذه الهبة لأن الميت لم يعمل شيئا والله لا يجزى الناس إلا بأعمالهم ، والحديث صريح في أن ابن آدم بعد موته ينقطع عمله إلا من ثلاث اثنان منهما من عمله وهما الصدقة الجارية من ماله والعلم الذى ينتفع به ، والثالثة دعاء الولد الصالح له ، والولد كسب أبيه فكان الميت هو الذى دعا لنفسه ، ولا ينفع الميت شئ غير هذه الثلاث ، بالنص ولا قياس مع النص ، ثم الحج والصيام الذين جاز نفعهما للميت إنما نفعاه لأنهما قضاء دين كان عليه ، وجاز فيها فقط . بالنص أيضا لأن امرأة سألت النبي ﷺ فقالت إن أمى ماتت وعليها صوم شهر فأصوم عنها فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أرايت إن كان على أمك دين أكنت قاضيته قالت نعم قال فدين الله أولى بالقضاء ، وكذلك الحج لأنه يجب في العمر مرة وفواته مع القدرة ومع حاجة أهل بيت الله الحرام إلى النفقة يستوجب قضاءه ، وبما يدل على عدم نفع الهدية للميت أن النبي ﷺ لم يصرح بنفع الصلاة للميت فلو مات الميت وعليه صلاة لا يصلى عنه بدلها ، ولو مات الميت وعليه قراءة قرآن لا يقرأ عنه أو عليه تدريس درس أو سير إلى المسجد الأقصى لا يدرس الدرس عنه ولا يسار إلى المسجد الأقصى عنه وهكذا ، فنحن نتبع مانص عليه الرسول ﷺ ولا قياس مع النص والله أعلم .

باب سؤال المخلوق للمخلوق الذى غيره أفضل منه ، فان من لا يسأل الناس ، بل لا يسأل
إلا الله أفضل من يسأل الناس ، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم .

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم إجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكل إخلاصا ،
وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه ، إلى دعاء من
يدعوا لله بسؤاله وهو حاضر ؟ وفى الحديث « أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب ،
وفى صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال « مامن رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة ،
إلا وكل الله ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة ، قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله ،
وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء
الله ومساأله ، فلهذا كان طلب الدعاء جائزا ، كما يطلب منه الاعانة بما يقدر عليه
والأفعال التي يقدر عليها .

فاما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه ، لا يطلب
ذلك لا من الملائكة ، ولا من الأنبياء ، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن يقال لغير
الله : اغفرلى ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو
ذلك . ولهذا روى الطبراني فى معجمه أنه كان فى زمن النبي ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ،
فقال الصديق : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فجأوا إليه فقال
« إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله ، وهذا فى الاستعانة مثل ذلك .

فاما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ) وفى دعاء موسى عليه السلام « اللهم لك الحمد ، واليك
المشتكى ، واليك المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا
قوة إلا بك ، وقال أبو يزيد البسطامى : استغاثه المخلوق بالمخلوق كاستغاثه الغريق
بالغريق . وقال أبو عبد الله القرشى : استغاثه المخلوق بالمخلوق كاستغاثه المسجون
بالمسجون . وقال تعالى (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ
الصُّرْعِ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِ يَلَاءِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) قال طائفة من

السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي ، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ، ويتقربون إلى كما تقربون إلى . فهي سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء ، مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا ان نطلب ذلك منهم ، وكذلك الأنبياء والصالحون ، وان كانوا أحياء في قبورهم ، وان قدر أنهم يدعون للأحياء ، وان وردت به آثار فليس لأحد ان يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم في حياته ، فانه لا يفضي إلى الشرك ، ولأن ماتفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالامر الكوني ، فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم في حياته فانه يشرع لإجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم .

وقال تعالى (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ه وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) بين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر ، وقال تعالى (قُلْ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ه وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وقال تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟) وقال تعالى (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) وقال تعالى (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) وقال تعالى (وَیَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَنْبِئُونَا اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى عن صاحب يس (وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي

فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ه أَتُخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون ه إِنْى إِذَا لَسِي ضَلَالٌ مُبِين ه إِنْى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ)
 فالشفاعة نوعان : أحدهما الشفاعة التى نفاها الله تعالى ، كالتى أثبتها المشركون
 ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، والثانى : ان يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التى
 أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة
 يوم القيامة يأتى ويسجد . قال : فأحمد ربى بمحامد بفتحها على لأحسنها الآن ، فيقال
 أى محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فاذا أذن له فى
 الشفاعة شفع صلى الله عليه وسلم تسليما .

قال أهل هذا القول : ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به ، بمعنى أن يكون
 هو داعيا للتوسل به ، أن يشرع ذلك فى مغيبه وبعد موته ، مع أنه هو لم يدع للتوسل
 به ، بل المتوسل به أقسم به أو سأل بذاته ، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين ، وذلك
 لانه فى حياته يدعو هو لمن توسل به ، ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو
 أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق
 لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ولم يشفع له ؟ ومن سوى بين من
 دعا له الرسول ومن لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل ، كهذا التوسل فهو من أضل الناس
 وأيضا فإنه ليس فى طلب الدعاء منه ودعاؤه هو والتوسل بدعاؤه ضرر ، بل هو
 خير بلا شر ، وليس فى ذلك محذور ولا مفسدة ، فان أحدا من الانبياء عليهم السلام
 لم يعبد فى حياته بحضوره ، فانه ينهى من يعبده ويشرك به ، ولو كان شركا أصغر ،
 كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم من سجد له عن السجود له ، وكما قال : لا تقولوا ما شاء الله وشاء
 محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله ^(١) ثم ما شاء محمد ، وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف الفتنة والإشراك به ، كما أشرك بالمسيح ، والعزير ،
 وغيرهما عند قبورهم ، وغير قبورهم . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تطرونى كما أطرت
 النصارى عيسى بن مريم ، فانما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله ، أخرجاه فى

(١) كانت الآية فى طبعة السيد رشيد : لا تنفى عنهم شفاعتهم ، وهى غلط وقد صححناها
 كما ترى . (١) كانت لفظة « ما » ساقطة فى طبعة السيد رشيد فردناها .

الصحيحين وقال : اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، وقال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبورهم^(٢) أنبياءهم مساجد ، يحذر ما فعلوا .

وبالجملة فمعنا أصلا عظيما ، أحدهما : أن لا نعبد إلا الله ، والثاني : أن لا نعبد إلا بما شرع ، لا نعبده بعبادة مبتدعة . وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، كما قال تعالى (لَيَبْلُوَنَّكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : أن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، وذلك تحقيق قوله تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا . وقال تعالى (أَمْ لَمْ شُرْكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ؟) .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ، وفي لفظ في الصحيح : من عمل عملا ليس عليه أمرنا ، فهو رد ، وفي الصحيح وغيره أيضا يقول الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري ، فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك ، ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف^(١) ، كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبل الحجر الأسود وقال : والله إنني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك ، والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته ، وموالاته ومحبته وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته ، محبة الله وكرامته . فقال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وقال تعالى (وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) وقال تعالى (وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ

(١) كانت هذه الكلمة في الطبعة الثانية قبورهم ، وهي تحريف ظاهر فصحنها كما ترى

(٢) أي على النص والتعليم لا على الاجتهاد .

وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ،
وأمثال ذلك في القرآن كثير .

ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة ، وجاءت به الشريعة ، ودل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة ، وما عليه قال به ، وما لم يعمله أمسك عليه ، ولا يقفو ما ليس له به علم ، ولا يقول على الله ما لم يعلم ، فإن الله تعالى قد حرم ذلك كله ، وقد جاء في الأحاديث النبوية ذكر ما سأل الله تعالى به ، كقوله ﷺ : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي ، يا قيوم » ، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، وقد اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير الله تعالى ، وهو الحلف بالمخلوقات ، فلو حلف بالكعبة ، أو بالملائكة ، أو بأحد من الشيوخ ، أو بالملوك لم ينعقد يمينه ، ولا يشرع له ذلك ، بل ينهى عنه ، إما ينهى تحريم ، وإما ينهى تنزيه . ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت » ، وفي الترمذي عنه ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين أنه ينعقد اليمين بأحد من الخلق ، إلا في نبيينا ﷺ ، فإن عن أحمد روايتين في أنه ينعقد اليمين به ، وقد طرد بعض أصحابه كابن عقيل الخلاف في سائر الأنبياء ، وهذا ضعيف . وأصل القول بانعقاد اليمين بالنبي ضعيف شاذ ، ولم يقل به أحد من العلماء فيما نعلم ، والذي عليه الجمهور كمالك والشافعي وأبي حنيفة أنه لا ينعقد اليمين به ، كاحدى الروايتين عن أحمد ، وهذا هو الصحيح .

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات ، بل إنما يستعاذ بالخالق تعالى ، وأسمائه وصفاته ، ولهذا احتج السلف - كأحمد وغيره - على أن كلام الله غير مخلوق فيما احتجوا به بقول النبي ﷺ : « أعوذ بكلمات الله التامات » ، قالوا : فقد استعاذ بها ، ولا يستعاذ بمخلوق ، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً » ، فهى عن الرقى التى فيها شرك ، كالتى فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والأقسام ، التى يستعملها بعض الناس فى حق المصروع وغيره ، التى تتضمن الشرك ، بل نهوا عن

كل ما لا يعرف معناه من ذلك خشية أن يكون فيه شرك ، بخلاف ما كان من الرقي المشروعة ، فانه جائز ، فاذا لا يجوز أن يقسم لا قسما مطلقا ، ولا قسما على غيره إلا بالله عز وجل .

والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسما عليه ، وإما أن يكون طالبا بذلك السبب كما توسل الثلاثة في الغار بأعمالهم ، وكما يتوسل بدعاء النبي ﷺ والصالحين ، فان كان إقساما على الله بغيره فهذا لا يجوز ، وإن كان سؤالا بسبب يقتضى المخلوق^(١) كالسؤال بالأعمال التي فيها طاعة الله ورسوله ، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ، وصحبته ، وموالاته ؛ ونحو ذلك . فهذا جائز . وإن كان سؤالا بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع ، وقد نهى عنه غير واحد من العلماء ، وقالوا : إنه لا يجوز ورخص فيه بعضهم والاول أرجح كما تقدم ، وهو سؤال بسبب لا يقتضى حصول المطلوب ، بخلاف من كان طالبا بالسبب المقتضى لحصول المطلوب ، كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين ، وبالأعمال الصالحة ، فهذا جائز ، لأن دعاء الصالحين سبب لثواب الله لنا ، وإذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا كنا متوسلين إليه تعالى بوسيلة ، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) والوسيلة هي الأعمال الصالحة ، وقال تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) .

وأما إذا لم نتوسل إليه سبحانه بدعائهم ، ولا بأعمالنا ، ولسكن توسلنا بنفس ذواتهم ، لم يكن نفس ذواتهم سببا يقتضى إجابة دعائنا ، فسكننا متوسلين بغير وسيلة ، ولهذا لم يكن هذا منقولا عن النبي ﷺ نقلا صحيحا ، ولا مشهورا عن السلف ، وقد نقل في منسك المروزي عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبي ﷺ ، وهذا قد يخرج على إحدى الروايتين عنه في جواز القسم به ، وأعظم العلماء على النهي في الأمرين .

ولاريب أن لهم عند الله الجاه العظيم ، كما قال تعالى في حق موسى ، وعيسى عليهما السلام ، وقد تقدم ذكر ذلك ، لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه اليهم ، ونحن ننفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم ، فاذا توسلنا إلى الله

(١) كذا في الاصل ولعل فيه تحريفا وحذفا والمراد : وان كان سؤالا بسبب يقتضى الاجابة أو المطلوب ، كما تقدم نظيره وكما يأتي مثله قريبا (ر) .

تعالى بإيماننا بنبيه ومحبيه وموالاته واتباع سنته فهذه من أعظم الوسائل ، وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز أن يكون وسيلة ، فالتوسل بالخلق إذا لم يتوسل بإيمان المتوسل به ولا بطاعته ، فبأي شيء يتوسل ؟ والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة فاما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك ، مثل أن يقال لأبي الرجل أو صديقه أو من يلزم عليه : اشفع لنا عنده ، وهذا جائز ، وأما أن يقسم عليه ، والإقسام على الله تعالى بالخلق لا يجوز ، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق ، وإما أن يسأل بسبب يقتضى المطلوب ، كما قال الله تعالى (وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) وسيأتى بيان ذلك .

وقد تبين أن الإقسام على الله سبحانه بغيره لا يجوز ، ولا يجوز أن يقسم بمخلوق أصلا ، وأما التوسل إليه بشفاعة المأذون لهم في الشفاعة فجائز ، والأعمى كان قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له كما طلب الصحابة منه الاستسقاء ، وقوله : أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة . أى بدعائه وشفاعته لى ، ولهذا تمام الحديث « اللهم فشفعه فى ، فالذى فى الحديث متفق على جوازه ، وليس هو مما نحن فيه . وقد قال تعالى (وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) فعلى قراءة الجمهور بالنصب . إنما يسألون بالله وحده ، لا بالرحم ، وتساءلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله ، وتعاهدهم بالله ، وأما على قراءة الخفض ، فقد قال طائفة من الساف : هو قولهم أسألك بالله وبالرحم ، وهذا إخبار عن سؤالهم ، وقد يقال أنه ليس بدليل على جوازه ، فإن كان دليلا على جوازه ، فعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساما بالرحم - والقسم هنا لا يسوغ - لكن بسبب الرحم ، أى لأن الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض حقوقا ، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة ، وكسؤالنا بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ومن هذا الباب ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب : أن ابن أخيه عبد الله بن جعفر كان إذا سأله بحق جعفر أعطاه ، وليس هذا من باب الإقسام ، فإن الإقسام بغير جعفر أعظم ، بل من باب حق الرحم ، لأن حق الله إنما وجب بسبب جعفر ، وجعفر حقه على على^(١) .

(١) العبارة - كما ترى - تشكو من تحريف النسخ والمعنى أن جعفر كان له حق على أخيه على (رضى الله عنهما) فإذا سئل بسبب حقه عليه أجاب (ر) .

ومن هذا الباب ، الحديث الذي رواه ابن ماجه ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ في دعاء الخارج إلى الصلاة : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشأى هذا ، فإني لم أخرج أشراً ، ولا بطراً ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ، فإنه لا يفر الذنوب إلا أنت . وهذا الحديث في إسناده عطية العوفي وفيه ضعف ، فإن كان من كلام النبي ﷺ فهو من هذا الباب لوجهين (أحدهما) لأن فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين ، وبحق الماشين في طاعته ، وبحق السائلين أن يجيبهم ، وبحق الماشين أن يشبههم ، وهذا حق أوجبه الله تعالى ، وليس للخلق أن يوجب على الخالق تعالى شيئاً ، ومنه قوله تعالى (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) - وقوله تعالى - (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) - وقوله تعالى - (وَعَدْنَا ^(١) عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) وفي الصحيح في حديث معاذ . حق الله على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم . وفي الصحيح عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » ، وإذا كان حق السائلين والعابدين له ، هو الإجابة والإثابة بذلك فذاك سؤال نافعا له ^(٢) (؟) كالأستعاذة بنحو ذلك في قوله ﷺ « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فالأستعاذة بمعافاته التي هي فعله ، كالسؤال بإثابته التي هي فعله .

(الوجه الثاني) أن الدعاء له سبحانه وتعالى والعمل له سبب لحصول مقصود العبد ، فهو كالوسيل بدعاء النبي ﷺ والصالحين من أمته ، وقد تقدم أن الدعاء بالنبي ﷺ

- (١) تمام هذه الآية (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) من سورة التوبة والمعنى أن الله أوجب على نفسه الجنة لمن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم إذا بذلوا في سبيل الله .
- (٢) الصحيح رفع نافع لأنها خبر عن فذلك إلا إذا كان في الكلا نقص يقضى ثبوته فيها

والصالح إما أن يكون إقساماً به ، أو سبباً به ، فإن كان قوله « بحق السائلين عليك » إقساماً فلا يقسم على الله إلا به ، وإن كان سبباً ، فهو سبب بما جعله هو سبحانه سبباً ، وهو دعاؤه وعبادته . فهذا كله يشبه بعضه بعضاً ، وليس في شيء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه ، ولا عمل صالح منها ،

وإذا قال السائل : أسألك بحق الملائكة ، أو بحق الأنبياء ، وحق الصالحين - ولا يقول لغيره أقسمت عليك بحق هؤلاء - فإذا لم يحز له أن يحلف به ، ولا يقسم على مخلوق به ، فكيف يقسم على الخالق به ، وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به ، فليس في مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده ، ولكن لابد من سبب منه ، كالإيمان بالملائكة والأنبياء ، أو منهم كدعائهم . ولكن كثير من الناس تعودوا ذلك ، كما تعودوا الحلف بهم ، حتى يقول أحدهم : وحقك على الله ، وحق هذه الشبهة على الله .

وإذا قال القائل : أسألك بحق فلان ، أو بجاهه . أى أسألك بإيماني به ، وبحبتي له ، وهذا من أعظم الوسائل . قيل : من قصد هذا المعنى ، فهو معنى صحيح ، لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء ، فمن قال : أسألك بإيماني بك ، وبرسولك ، ونحو ذلك ، أو بإيماني برسولك ، وبحبتي له ، ونحو ذلك ، فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقال تعالى (الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا بِمَا نُرْوَاهُ فَغَفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَرَحِّمْنَا) وقال تعالى (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا نُرْوَاهُ فَغَفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وقال تعالى (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَسَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) وكان ابن مسعود يقول : اللهم أمرتني فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا سحر فاغفر لي . ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر ، فأووا إلى الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة ، ففرج عنهم وهو ماثب ^(١) .

(١) لعل الاصل ، وهو ماثب في الصحيحين ، وما أظن ان المصنف قال «ما ثبت» فقط
وهي تحتمل النفي (٢)

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا خالد بن خراش العسقلاني وإسماعيل بن إبراهيم ، قالا حدثنا صالح المزني ^(٢) عن ثابت . عن أنس قال : دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل ، فلم نبرح حتى قبض ، فبسطنا عليه ثوبه ، وله أم عجوز كبيرة عند رأسه ، فالتفت اليها بعضنا وقال : يا هذه احتسبي مصيبتك عند الله . قالت : وما ذاك ؟ مات ابني ؟ قلنا نعم ، قالت : أحق ماتقولون ؟ قلنا نعم ، فمدت يديها إلى الله ، فقالت : اللهم إنك تعلم أني أسلمت ، وهاجرت إلى رسولك ^(٣) رجاء أن تعقبني عند كل شدة فرج ، فلا تحمل على هذه المصيبة اليوم . قال : فسكشفت الثوب عن وجهه فابرحنا حتى طعمنا معه . وروى في كتاب الحلية لأبي نعيم أن داود قال : بحق آبائي عليك ، إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فأوحى الله تعالى إليه ، يا داود ! أي حق لأبيك علي ؟ وهذا وإن لم يكن من الدلالة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها . ولا يعتمد عليها .

وقد مضت السنة أن الحى يطلب منه الدعاء ، كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه ، وأما المخلوق الغائب والميت ، فلا يطلب منه شيء ، يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح ، فعناه في لغة الصحابة ، أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته . ودعاؤه وشفاعته عليه السلام من أعظم الوسائل عند الله عز وجل ، وأما في لغة كثير من الناس ، فعناه أن يسأل الله تعالى ويقسم عليه بذاته ، والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات ، بل لا يقسم بها بحال ، فلا يقال أقسمت عليك يارب ملائكتك ، ولا بكعبتك ، ولا بعبادك الصالحين ، كما لا يجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء ، بل إنما يقسم بالله تعالى بأسمائه وصفاته ، ولهذا كان السنة أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، فيقول : أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وكذلك قوله : اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم ، وجدك الأعلى ، وبكلماتك

(٢) نسبة إلى المزة بكسر الميم قرية بدعشق .

(٣) ظاهر هذه الكلمة أنها من المهاجرات وتقدم أن ابنها من الأنصار ، وذلك ممكن (د)

التامات . مع أن هذا الدعاء الثالث في جواز الدعاء به قولان للعلماء ، قال الشيخ أبو الحسين القدوري في كتابه المسمى بشرح السكرخي : قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك . وهو قول أبي يوسف ، قال أبو يوسف : معقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام ، قال القدوري : المسألة بخلافه لا يجوز ، لأنه لاحق للمخلوق على الخالق ، فلا يجوز . يعنى وفاقا ، وهذا من أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما يقتضى المنع أن يسأل الله بغيره .

فان قيل : الرب سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به . فهلا قيل : يجوز أن يقسم عليه بمخلوقاته ، وأن لا يقسم على مخلوق إلا بالخالق تعالى ؟ قيل لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته وإقسامنا نحن بذلك شرك ، إذا أقسمنا به لحض غيرنا أو لمنعه أو تصديق خبر أو تكذيبه . ومن قال لغيره : أسألك بكذا . فاما أن يكون مقسما فهذا لا يجوز بغير الله تعالى ، والكفارة في هذا على المقسم ، لا على المقسم عليه ، كما صرح بذلك أئمة الفقهاء وإن لم يكن مقسما فهو من باب السؤال . فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما .

فتبين أن السائل لله بخلقه إما أن يكون حالفا بمخلوق ، وذلك لا يجوز . وإما أن يكون سائلا به ، وقد تقدم تفصيل ذلك . وإذا قال : بالله افعل كذا . فلا كفارة فيه على واحد منهما ، وإذا قال : أقسمت عليك بالله لتفعلن ، أو والله لتفعلن . فلم يبر قسمه لزمته الكفارة الخالف . والذي يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به وأما إذا أقسم على الله تعالى مثل أن يقول : أقسمت عليك يا رب لتفعل كذا ، كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من السلف ، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « رب أشعث أغبر^(١) ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وفي

(١) الأشعث هو من شعر رأسه مفرق بغير نظام أو المغبر الشعر والأغبر الذى عليه الغبار وهو التراب والظمر ان تشبة ظمرو وهو الثوب البالى من غير الصوف والمدفوع بالأبواب الذى يحتمره الناس ويدفعونه عن أبوابهم ولا يسمحون له بالدخول لعدم حسن منظره فى عيونهم ، أى قد يكون الشخص سىء المنظر لا يحترمه الناس وهو عند الله ذو منزلة عظيمة حتى لو أقسم عليه لنفذ الله له رغبته وأبر قسمه .

الصحيح أنه قال لما قال أنس بن النضر : والذي بعثك بالحق لا تسكر ثنية الربيع ، فقال النبي ﷺ : يا أنس كتاب الله القصاص ، فعفا القوم فقال النبي ﷺ : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره ، وهذا من باب الخلف بالله لنفعلن هذا الأمر . فهو إقسام عليه تعالى وليس إقساماً عليه بمخلوق .

وينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة . فإن ذلك لا ريب في فضله وحسنه ، وأنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله ﷺ : إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهي . حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ولا هو في شيء من كتب الحديث ، وإنما الم شروع الصلاة عليه في كل دعاء ، ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء في الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه ، ولم يذكروا فيما شرع للمسلمين في هذه الحال التوسل به ، كما لم يذكر أحد من العلماء دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره في حال من الأحوال وإن كان بينهما فرق فإن دعاء غير الله كفر ، ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين — لا الأنبياء ولا غيرهم — عن أحد من السلف وأئمة العلم ، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين ، بخلاف قولهم : أسألك بجاه نبينا أو بحقه ، فإن هذا لما نقل عن بعض المتقدمين فعله ولم يكن مشهوراً بينهم ولا فيه سنة عن النبي ﷺ ، بل السنة تدل على النهي عنه كما نقل ذلك عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما .

ورأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام قال : لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله ﷺ إن صح حديث الأعمى ، فلم يعرف صحته ، وقد تقدم أن هذا الحديث لا يدل إلا على التوسل بدعائه ، ليس من باب الأقسام بالمخلوق على الله تعالى ، ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم ، والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء عدلوا عما أمروا به وشرع لهم وهو من أنفع الأمور لهم إلى ما ليس كذلك ، فإن الصلاة عليه من أعظم الوسائل التي بها يستجاب الدعاء ، وقد أمر الله بها . والصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، قال الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ)

وَسَلُّوا نَسَائِمًا) وفي الصحيح عنه أنه قال : من صلى على مرة ، صلى الله عليه عشرة ، وعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله ، ولا يصلي على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : عجل هذا ! ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه ثم يصلي على النبي ، ثم يدعو بعده بما شاء ، رواه أحمد وأبو داود - وهذا لفظه - والترمذي والنسائي . وقال الترمذي حديث صحيح . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرة ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبده من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ، وفي سنن أبي داود والنسائي عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله ﷺ : قل كما يقولون فإذا انتهت سل تعطه ، وفي المسند عن جابر بن عبد الله قال : من قال حين ينادى المنادي : اللهم رب هذه الدعوة القائمة والصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه رضا لا سخط بعده . استجاب الله له دعوته ، وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة ، رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء قلما ترد على داع دعوته : عند حصول النداء ، والصف في سبيل الله ، رواه أبو داود . وفي المسند والترمذي وغيرهما عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربيع الليل قام فقال : يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها (١) الرادفة ، جاء الموت بما فيه . قال أبي قلت : يا رسول الله إنى أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي قال : ما شئت . قلت الربع ؟ قال : ما شئت وإن زدت فهو خير لك . قلت النصف ؟ قال : ما شئت وإن زدت فهو خير لك . قلت الثلثين ؟ قال : ما شئت وإن زدت فهو خير لك . قلت أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : إذا يسكنك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك . وفي لفظ - إذا يسكني همك

(١) الراجفة النفخة الأولى التي يرفج منها كل شيء أي يزلزل ويضطرب ويذهب ، والرادفة النفخة الثانية التي تردف النفخة الأولى أي تتبعها وبها يحيى كل شيء . كان مات بالنفخة الأولى

ويغفر ذنبك ، وقول السائل : أجعل لك من صلاتي ؟ يعنى من دعائى . فان الصلاة فى اللغة هى الدعاء . قال تعالى (وَصَلُّ ^(١) عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) وقال النبى ﷺ اللهم ^(٢) صل على آل أبى أوفى ، وقالت امرأة : صل على يارسول الله وعلى زوجى . فقال صلى الله عليك وعلى زوجك ، فيكون مقصود السائل أى يارسول الله إن لى دعاء أدعو به أستجلب به الخير ، وأستدفع به الشر ، فكم أجعل لك من الدعاء ، قال : ماشئت ، فلما انتهى إلى قوله : اجعل لك صلاتى كلها . قال : إذا تكفى همك ويغفر ذنبك ، وفى الرواية الأخرى : إذا بكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك ، وهذا غاية ما يدعو به الإنسان من جلب الخيرات ودفع المضرات ، فان الدعاء فيه تحصيل المطلوب ، واندفاع المرهوب ، كما بسط ذلك فى مواضعه . وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية ، وأعرضوا عن الأدعية البدعية فينبغى اتباع ذلك .

والمراتب فى هذا الباب ثلاث (إحداهما) أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول : ياسيدى فلان أغثنى أو أنا أستجير بك أو أستغيث بك أو انصرنى على عدوى . وأعظم من ذلك أن يقول : اغفر لى وتب على . كما يفعله طائفة من الجهال المشركين . وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلى إليه ويرى الصلاة إليه أفضل من استقبال القبلة . حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والسكبة قبل العوام . وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج حتى يقول ان السفر إليه مرات يعدل حجة ، وغلاتهم يقولون : الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة . ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس فى بعضه .

(الثانية) أن يقال للبيت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع الله لى ، أو ادع لناربك أو اسأل الله لنا . كما تقول النصرارى لمريم وغيرها ، فهذا أيضا لا يستريب عالم أنه غير جائز ، وأنه من البدع التى لم يفعلها أحد من سلف الأمة ، وإن كان السلام على

(١) تمام هذه الآية ، خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) من سورة التوبة .

(٢) كان رسول الله ﷺ . إذا جاءه أحد بركة ماله قال (اللهم صلى على آل فلان ، فجاءه أبو أوفى بركاته فقال اللهم صل على آل أبى أوفى ، وذلك امثالا لقوله تعالى وصل عليهم

أهل القبور جائزاً ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول قائلهم هـ السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يغفر الله لنا ولكم ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم هـ وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رداً الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من مسلم يسلم على إلا رداً الله على روحه حتى أرد عليه السلام ، لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لادعاء ولا غيره . وفي موطأ مالك أن ابن عمر كان يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أربة ^(١) ثم ينصرف . وعن عبد الله بن دينار قال رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي ﷺ ويدعو لأبي بكر ، وعمر . وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم أنهم كانوا يسلمون على النبي ﷺ ، فإذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبلي الحجرة . وإن كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية والعامة ، فلم يذهب إلى ذلك إمام متبع في قوله ولا من له في الأمة لسان صدق عام .

ومذهب الأئمة الأربعة : مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الإسلام أن الرجل إذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ، واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة مالك والشافعي وأحمد : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه ، وقال أبو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت الدعاء باتفاقهم . ثم في مذهبه قولان قيل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره فهذا نزاعهم في وقت السلام . وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه إنما يستقبل القبلة لا الحجرة .

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم . كذب على مالك ليس لها إسناد معروف ، وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كتب أصحابه ، كما ذكره

(١) أصلها يا أبي .

اسماعيل بن إسحاق القاضي وغيره ، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم ، فأُنكر مالك ذلك وذكر أنه من البدع التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك ، فإن الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعاداتهم ، ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك وكانوا أسبق إليه من بعدهم ، والداعي يدعوا لله وحده ، وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد الغنوي أن النبي ﷺ قال : لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها ، فلا يجوز أن يصلى إلى شيء من القبور لا قبور الأنبياء ولا غيرهم لهذا الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة إلى القبر ، بل هذا من البدع المحدثه . وكذلك قصد شيء من القبور لاسيما قبور الأنبياء والصالحين عند الدعاء إذا لم يجوز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه أولى أن لا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصلى مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له بطريق الأولى ، فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئاً ، لا يطلب منه أن يدعو الله ولا غير ذلك . ولا يجوز أن يشكى إليه بشيء من مصاب الدنيا والدين ، ولو جاز أن يشكى إليه ذلك في حياته ، فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك ، وهذا يفضي إلى الشرك ، لأنه في حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له في ذلك من الأجر والثواب ، وبعد الموت ليس مكلفاً بل ما يفعله من ذكر لله تعالى ودعائه ونحو ذلك كما أن موسى يصلى في قبره وكما صلى الأنبياء خلف النبي ﷺ ليلة المعراج ببيت المقدس ، وتسبيح أهل الجنة والملائكة - فهم يتمتعون بذلك وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم ويقدره لهم ، ليس هو من باب التكليف الذي يتمتع به العباد .

وحينئذ فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً ، بل ما جعله الله فاعلاً له هو يفعله وإن لم يسأله العبد ، كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به وهم إنما يطيعون أمر ربهم

لا يطيعون أمر مخلوق ، كما قال سبحانه وتعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ) فهم لا يعملون إلا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته ، فان بيته كانت للصلاة فيه مشروعة ، وكان يجوز أن يجعل مسجدا ، ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجدا كما أن في الصحيحين عنه عليه السلام أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما فعلوا . » ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا ، وفي صحيح مسلم وغيره عنه عليه السلام أنه قال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك ، » وقد كان عليه السلام في حياته يصلي خلفه وذلك من أفضل الاعمال . ولا يجوز بعد موته أن يصلي الرجل خلف قبره ، وكذلك في حياته يطلب منه أن يأمر وأن يفتي وأن يقضى ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته وأمثال ذلك كثيرة .

وقد كره مالك أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله عليه السلام . لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا اللفظ صار مشتركا في عرف المتأخرين يراد به الزياره البدعية التي في معنى الشرك كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به أو يسأل الله عنده .

والزيارة الشرعية هي أن يزوره الله تعالى للدعاء له والسلام عليه كما يصلي على جنازته . فهذا الثاني هو المشروع ، ولكن كثيرا من الناس لا يقصد بالزيارة إلا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره . لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذي يقصده أهل البدع والشرك .

(الثالثة) أن يقال : أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه . وتقدم أيضا أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره .

وقد تبين ما في لفظ التوسل من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين ما لم يسكنوا بفعلونه ، فان لفظ التوسل والتوجه في عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل

والتوجه بدعائه وشفاعته . ولهذا يجوز أن يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وإن كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبي ﷺ أنه قال : إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور فاستعينوا بأهل القبور ، فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة . وقد قال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا) وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبي ﷺ عما هو أقرب من ذلك - عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك ، ولعن أهله تحذيرا من التشبه بهم ، فإن ذلك أصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) فإن هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صورهم ، ثم اتخذوا الأصنام على صورهم ، كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف .

وهذا الذي نهى عنه النبي ﷺ من هذا الشرك هو كذلك في شرائع غيره من الانبياء . ففي التوراة أن موسى عليه السلام نهى بني إسرائيل عن دعاء الاموات وغير ذلك من الشرك ، وذكر أن ذلك من أسباب عقوبة الله لمن فعله . وذلك أن دين الانبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : إنا معشر الانبياء ديننا واحد ، وقد قال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ^(١) ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وقال تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

(١) أي أحزابا متخالفين والآيات من سورة المؤمنون .

عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ه مُبَيِّنَ
إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ه مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل
الله ديناً غيره من الأولين والآخرين ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

فصل

وإذا تبين ما أمر الله به ورسوله وما نهى الله عنه ورسوله في حق أشرف الخلق ،
وأكرمهم على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والأنبياء ، وأفضل الأولين
والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاهاً عند الله تبارك وتعالى - تبين أن من
دونه من الأنبياء والصالحين أولى بأن لا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى
من دون الله لافي حياته ولا في مماته .

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا المائتين ، مثل أن
يقول : يا سيدي فلانا أغثنى وانصرني وادفع عني ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك ، بل كل
هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ،
وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس
عباد الأوثان ، صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عباد الأوثان ويغويهم ،
فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به ، وتخطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ،
كما تخطب الشياطين السكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكن لا بد أن يكون في ذلك
ما هو كذب ، بل الكذب أغلب عليه من الصدق ، وقد تقضى الشياطين بعض
حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه ، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء من
الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صور ملكاً على صورته فعل ذلك ،
ويقول أحدهم : هذا سر الشيخ وحاله . وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل
المشرك به المستغيث به ، كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضى بعض
حوالهم ، كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب ، وهو اليوم موجود في المشركين
من الترك والهند وغيرهم .

وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جثنا في الهواء ودفعنا عنهم ، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين (١) وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان . وكذلك المستغيثون من النصاري بشيوخهم الذين يسمونهم العلاس يرون أيضا من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي ﷺ غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه وإنما ذلك كله من الشياطين ، وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان . وقال الخليل عليه السلام (وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ) كما قال نوح عليه السلام وما لوم أن الحجر لا يضل كثيرا من الناس إلا بسبب اقتضى ضلالهم ، ولم يكن أحد من عباد الأصنام يعتقد أنها خلقت السموات والأرض ، بل إنما كانوا يتخذونها شفعا ووسائط لأسباب : منهم من صورها على صور الأنبياء والصالحين ، ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر ، ومنهم من جعلها لأجل الجن ، ومنهم من جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم إنما هو الملائكة والأنبياء والصالحون أو الشمس أو القمر ، وهم في نفس الأمر يعبدون الشياطين ، فهي التي

(١) وقد وقع ان بعض المصابين بالصرع ونحوه رأوني ادفع عنهم الجن الذين يؤذونهم . ومن الناس من يعمل ذلك بأن الرائي يتمثل له صورة من يعتقد صلاحه في خياله فيراه في الخارج وهو مستيقظ مأخوذ عن حسه كما يراه في النوم . وهذا التعليل أقرب . ولابن القيم كلام فيه حسن في بحث الرؤيا ينحل به رؤية الكفار لبعض الأنبياء والصالحين (ر)

تقصد من الإنس ان يعبدوها وتظهر لهم ما يدعونه إلى ذلك ، كما قال تعالى (وَيَوْمَ نَخَشُّهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَدُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهْؤُلَاءِ إِبْنَانُكُمْ يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) وإذا كان العابد مما لا يستحل عبادة الشياطين أو هموه انه إنما يدعو الأنبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به . واما ان كان مما لا يحرم عبادة الجن عرفوه أنهم الجن . وقد يطلب الشيطان الممثل له في صورة الإنسان أن يسجد له أو ان يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر ، أو ان يقرب لهم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك . بل يظنون أن من يخاطبهم اما ملائكة واما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء الله غائبون عن أبصار الناس . وأولئك جن تمتلئ بصور الإنس أو رؤيت في غير صور الإنس ، قال تعالى (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، وكانت الإنس تستعين الجن فصار ذلك سببا لطغيان الجن ، وقالت : الإنس تستعين بنا .

وكذلك الرقي والعزائم الاجمية هي تتضمن أسماء رجال من الجن يدعون ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه ، فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الامور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلْطَانٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَاسَكُنَ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرُ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَيِّنَاتٍ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ . وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها ، ويكون مع ذلك زنديقا يحد الصلاة وغيره مما فرض الله ورسوله

ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله ، وإنما يقترب به أولئك الشياطين لما انه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى إذا آمن بالله ورسوله وتاب وانزم طاعة الله ورسوله ، فارقت تلك الشياطين ، وذهبت تلك الاحوال الشيطانية من الاخبار والتأثيرات ، وأنا أعرف من هؤلاء عددا كثيرا بالشام ومصر والحجاز واليمن واما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها ، وبلاد السكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

ولما ظهرت هذه الاحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها ، فحيث قوى الإيمان والتوحيد ونور الفرقان والإيمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الاحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الاحوال الشيطانية ، والشخص الواحد الذي يجتمع فيه هذا وهذا الذي تسكون فيه مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال ، والمشركون الذين لم يدخلوا في الاسلام مثل البخشية والطوانية والبدعي ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للسكفار من الترك والهند والخطا وغيرهم تسكون الاحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ، ويبقى الدف^(١) الذي يغني لهم به يمشی في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم اذا خرج عن طريقهم ولا يرون أحدا يضرب له ، ويطوف الاناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاما يكفيهم ويأتيهم بألوان مختلفة ، وكذلك من الشياطين تأتيه من ملك المدينة القريبة منه أو من غيرها وتأتي به وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركا أو ناقص الإيمان من الترك وغيرهم وعند التتار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون في الاسلام اذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم فلمهم من الاحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضى الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم اذا حاذى المواقيت ولا يبديت بمزدلفة ولا يطوف

(١) هو المعروف عندنا (بالطار)

طواف الإفاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الاولياء ، ولا يعلم ان هذا من تلاعب الشيطان به ، فان مثل هذا الحج ليس مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ، ومن ظن ان هذا عبادة وكرامة لاولياء الله فهو ضال جاهل ، ولهذا لم يكن أحد من الانبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فانهم أجل قدرا من ذلك ، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطائفة معه من الاسكندرية إلى عرفة فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال : كتبتموني ؟ قالوا : أنت لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لانكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الاسلام مبني على أصاين ، على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يُعبد مباشرة على لسان نبيه ﷺ . وهذان هما حقيقة قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فالإله هو الذي تأله القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاءً واجلالاً واکراماً . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ، ولا يدعى الا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يطاع الا الله .

والرسول ﷺ هو المبلغ عن الله تعالى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالخلال ما حله ، والحرام ما حرّمه ، والدين ما شرعه . والرسول ﷺ واسطة بين الله وبين خلقه تبليغ أمره ونهيه ، ووعدته ووعدته ، وتحليله وتحريمه ، وسائر ما بلغه من كلامه وأما في اجابة الدعاء ، وكشف البلاء ، والهداية والاعناء ، فالله تعالى هو الذي يسمع كلامهم ويرى مكالمهم ويعلم سرهم ونجواهم ؛ وهو سبحانه قادر على انزال النعم ، وازالة الضر والسقم ، من غير احتياج منه الى أن يعرفه أحد احوال عبادته أو يعينه على قضاء حوائجهم ، والاسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها وسيرها فهو مسبب الاسباب ، وهو الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن) فأهل السموات يسألونه وأهل الأرض يسألونه ، وهو سبحانه لا يشغله سمع هذا عن سمع كلام هذا ولا يغلظه اختلاف أصواتهم

ولفاتهم ، بل يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات ، ولا يبرمه ^(١) إلحاح الملحين ، بل يحب الإلحاح في الدعاء .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم اذا سألوا النبي ﷺ عن الأحكام أمر رسول الله ﷺ بإجابتهم كما قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِهْلَةِ قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ - وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ : الْعَفْو - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَثِيرٌ) الى غير ذلك من مسائلهم ، فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي) فلم يقل سبحانه : فقل . بل قال تعالى « فاني قريب أجيب دعوة الداعي ، فهو قريب من عباده كما قال النبي ﷺ في الحديث لما كانوا يرفعون أصواتهم بالذكر والدعاء فقال « أيها الناس أربعوا ^(٢) على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذين تدعونهم أقرب إلى أحدكم من عنق راحلتهم ، وقال النبي ﷺ ، اذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يبصقن قبل وجهه فان الله قبل وجهه ، ولاعن يمينه فان عن يمينه ملكا ، ولكن عن يساره وتحت قدمه ، وهذا الحديث في الصحيح من غير وجه .

وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن ^(٣) من خلقه ، ليس في مخلوقاته ، شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته . وهو سبحانه غني عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر الى شيء من مخلوقاته ، بل هو الحامل بقدرته العرش وحملته العرش .

وقد جعل تعالى العالم طبقات ، ولم يجعل أعلاه مفتقرا الى أسفله ، فالسما لا يفتقر الى الهواء ، والهواء لا يفتقر الى الأرض ، فالعالي الأعلى رب السموات والأرض وما بينهما الذي وصف نفسه بقوله تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيء بحمل . أو غير حمل ، بل هو الأحد الصمد

(١) أي لا يجعله يبرم ويتضايق

(٢) أي انتظروا واحبسوا أنفسكم عن الاسترسال في رفع الصوت .

(٣) أي مخالف لهم منفصل عنهم .

الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، الذى كل ماسواه مفتقر اليه وهو مستغن عن كل ماسواه .

وهذه الأمور مبسطة في غير هذا الموضع قد بين فيه التوحيد الذى بعث الله به رسوله قولاً وعملاً ، فالتوحيد القولى مثل سورة الاخلاص (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) والتوحيد العملى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)^(١) ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك ، وقد كان أيضاً يقرأ فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف (قُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا)^(٢) الآية . وفى الركعة الثانية بقوله تعالى (قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) فإن هاتين الآيتين فى دين الاسلام وفىهما الايمان القولى والعملى ، فقولهما تعالى (آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) الى آخرها يتضمن الايمان القولى والاسلام . وقوله (قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) - الآية الى آخرها - يتضمن الاسلام والايمان العملى فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الاسلام والايمان ، وهما فى هاتين الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم .

فهذا آخر السؤال والجواب الذى أحببت إيرادها هنا بالفاظه لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة والقواعد النافعة فى هذا الباب مع الاختصار فإن التوحيد هو سر القرآن ، وكتب الايمان وتنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الأمور وأنفعها للعباد فى مصالح المعاش والمعاد ، والله أعلم .

تم الكتاب

(١) أى هذه السورة وفيها لا أعبد ما تعبدون فلا أطيعه ولا أقوم له بواجبات التعظيم وغيرها مما يفعلون (٢) تمام الآية (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) من سورة البقرة .

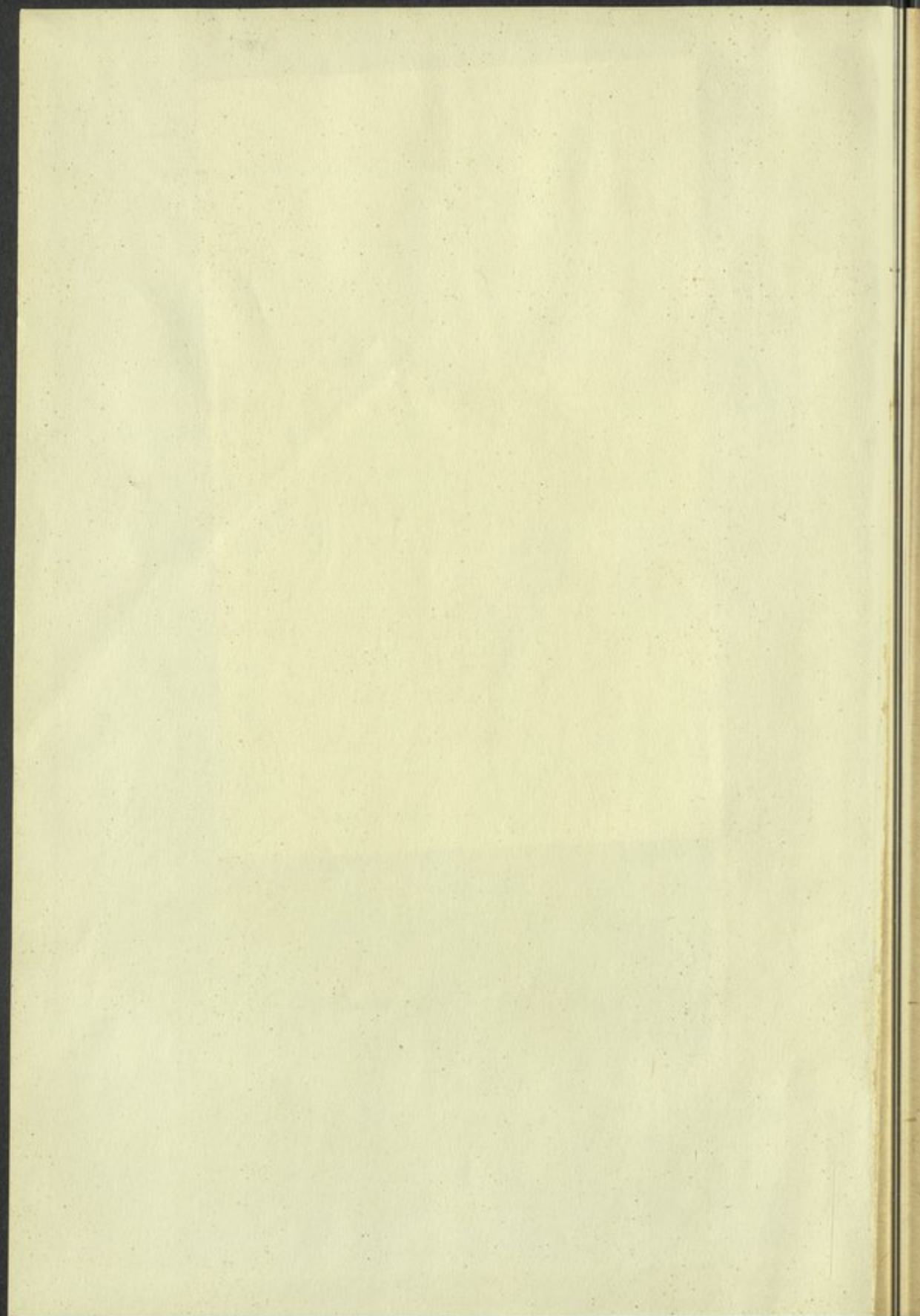
الفهرست

صفحة	
٢	مقدمة المعلق ٤ مقدمة المؤلف
٤	التوسل بالإيمان بالرسول ﷺ وبقائه فرض على كل أحد في كل حال في حياة الرسول وبعد موته ٥ الرسول شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود
٥	لفظ التوسل في عرف الصحابة رضي الله عنهم
٦	شفاعة الرسول ﷺ لآلئ طالب
٧	الشفاعة لمن مات على الكفر لا تنفعه ولو كان الشفيع رسولنا ﷺ
٨	شفاعة إبراهيم عليه السلام لآبيه ومجازلة بعض الصحابة الشفاعة لأقاربهم
٩	استئذان الرسول ﷺ ربه في الشفاعة لأمه
١٠	دعاء النبي ﷺ للمؤمنين في حياته بنفعهم في الدنيا والآخرة
١٠	شفاعة النبي ﷺ لأهل الذنوب من أمته
١١	دليل من ينكر الشفاعة ورد أهل السنة عليهم
١٢	لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن أذن له
١٤	استشفاع المشركين بالملائكة ووصور الصالحين
١٥	معنى لفظ التوسل ١٥ التوسل المشروع وغير المشروع
١٧	كان المشركون يعتقدون أن آلهتهم مخلوقة ولكنهم يتوسلون بها إلى الله ويعبدونها لتقربهم منه ١٨ أصل المشركين صنفان قوم نوح وقوم إبراهيم
٢٠	خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وخطاب تماثيلهم وصورهم أعظم أنواع الشرك
٢١	نظم القصائد في دعاء الميت والاستشفاع والاستغاثة به ليس بمشروع وهو بدعة سيئة
٢١	حكايات نجدة الأموات للأحياء والمنامات التي تدل على ذلك من الشيطان
٢٢	كتابة الأوراق والخطابات ووضعها عند القبور أو تعليقها عليها وكتابة المحاضر بالاستجارة بالأموات غير مشروع ولم يفعله أحد من الصحابة ولا من التابعين
٢٤	لا يجوز اتخاذ القبور مساجد لأنها إنما جعلت للعبادة
٢٥	زيارة القبور على وجهين شرعية وبدعية وبيان الزيارة الشرعية
٢٦	الزيارة البدعية للقبور
٢٧	شرك الفلاسفة والدهريين وبيان المؤثر في حوادث الكون عندهم
٢٨	ما يحدث عند القبور والاصنام من الأصوات والرؤى وبيان أنه من الشيطان

- ٢٩ طريق التحقق من المرتى إذا كان شيطانا أولا
- ٣٠ تعرض العفريت للرسول ﷺ في صلاته وإمساكه له وإطلاقه
- ٣١ من يرى السكبة تطوف به أو يرى عرشا وعليه صورة عظيمة
- ٣٢ من يخيل له أنه رأى الله في اليقظة وإنما هو رأى الشيطان
- ٣٣ موالاة الشياطين لمن يفعل ما يحبون وإخباره بالمغيبات وإيذاء أعدائه
- ٣٤ ظهور بعد الخوارق على يد المبتدعين الذين لا يؤدون واجبات ربهم
- ٣٥ مزهم أولياء الله ٣٦ الفرق بين دعاء الأنبياء والصالحين في حياتهم وبعد موتهم
- ٣٧ استغفار الملائكة للمسلمين ٣٨ نصيحة النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنه
- ٣٩ كان النبي ﷺ يرقى نفسه وغيره ولا يطلب أن يرقه غيره
- ٤٠ دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به
- ٤١ سؤال المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له غير مأمور به
- ٤٢ قد يكون سؤال السائل منبها عنه وليسكن المسئول مأمور بإجابة السائل
- ٤٢ سؤال الأعمى للرسول ﷺ أن يدعو له حتى يرد الله عليه بصره وسؤال أم أنس رضى الله عنها للنبي ﷺ أن يدعو لأنس، وسؤال أبي هريرة للنبي ﷺ أن يدعو له ولا منه
- ٤٣ فضل النبي ﷺ على أصحابه، مع عدم احتياجه إليهم
- ٤٤ طلب الدعاء ممن أحسن إليه طلب للجزاء ينفي التزهد عنه
- ٤٥ دين الإسلام مبنى على أصليين ٤٦ سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفسد
- ٤٦ لم يكن من عادة السلف إهداء ثواب الأعمال إلى النبي ﷺ
- ٤٧ من قال لغيره ادع لي بقصد حسن فهو مقتد بالنبي ﷺ
- ٥١ فصل - لفظ الوسيلة والتوسل فيه إجمال واشتباه
- ٥٢ معنى الوسيلة في الأحاديث الصحيحة ومعنى التوسل في كلام الصحابة
- ٥٣ معنى الوسيلة في القرآن
- ٥٣ عود إلى شرح معنى التوسل وبيان معانيه الثلاثة والمشروع منها
- ٥٤ الحلف بالخلق وحكمه في المذاهب الأربعة وغيرها
- ٥٥ السؤال بالخلق وحكمه والفرق بين السؤال بالخلق والقسم به
- ٥٦ الذين يقسمون على الله فيقسمهم ناس مخصوصون
- ٥٧ بعض أسباب إجابة السؤال من الله
- ٥٩ سؤال الثلاثة الذين أوتوا إلى الغار بأعمالهم الصالحة

- ٦١ قول السائل بحق فلان وحكم ذلك وبيان حق المخلوق على الله وعدمه
- ٦٣ الفرق بين الخالق والمخلوق وما يترتب على ذلك من السؤال وعدمه
- ٦٨ حديث الأعمى الذي دعا له النبي ﷺ لاجتماعه فيه على الدعاء بحق المخلوقين
- ٧١ مناظرة أبي جعفر المنصور للإمام مالك رضي الله عنه في مسجد الرسول ﷺ
- ٧٢ الفرق بين أهل المدينة والغرباء في قصد قبر الرسول ﷺ ، وبيان حكم دعاء الرسول وطلب الحوائج منه عند قبره
- ٧٦ السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين وهل يجب بالإنذار أولا يجب
- ٧٧ قوله ﷺ (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) وحكم الصلاة إلى القبور
- ٧٨ تعرض الصلاة على النبي ﷺ عليه يوم الجمعة ، ومن صلى عليه عند قبره سمعه ومن صلى عليه بعيدا ابلفته الملائكة إياه
- ٨٠ طالب شفاعته الرسول ﷺ ودعائه واستغفاره عند قبره ليس مشروعا
- ٨٢ بيان خرافة العقل الأول وأن حديث (أول ما خلق الله العقل) الخ مكذوب
- ٨٥ لم يعرف في الصحابة من تعمد الكذب على النبي ﷺ ولا من كان من أهل البدع المعروفة
- ٨٦ لم يعرف الكذب في التابعين من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة بخلاف الشيعة
- ٨٧ أول من قسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف أبو عيسى الترمذي في جامعه
- ٨٨ عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب
- ٨٩ حديث سؤال آدم ربه بحق نبينا ﷺ وما قيل فيه
- ٩٠ الفرق بين البخاري ومسلم في بعض الأحاديث المنازع فيها
- ٩٤ اجتماع مصعب وعروة وعبد الله أبناء الزبير وعبد الله بن عمر وتمنيهم على الله بعض الآمانيات
- ٩٦ عود إلى حديث الأعمى وبيان طريقة التوسل فيه
- ١٠٢ رواية أبي أمامة بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف قصة الرجل الذي كانت له حاجة عند عثمان رضي الله عنه واعتقاد الرجل أن عثمان شفيع له عند الخليفة
- ١٠٥ انفراد بعض الصحابة بأفعال ليست من السنة لاعتقادهم التبرك لأن النبي ﷺ فعلها أو لاعتقادهم أنها نافعة ولا تضر الدين ١٠٨ متى يكون قول الصحابي حجة
- ١٠٩ القسم الثالث من التوسل وبيان أنه لم يرد فيه شيء من الأحاديث
- ١١٠ سؤال الله بالخلق والإقسام بهم عليه ليس مشروعا بل هو من أعظم البدع
- ١٢٠ سجود إخوة يوسف له واتخاذ المسجد على أهل الكهف وبيان أن ذلك ليس شرعانا
- ١٢٢ حديث استغاثته أبي بكر والصحابة بالرسول ﷺ من المنافق ورد الرسول ﷺ عليهم

- ١٢٢ من حلف بحق المخلوقين وهل ينعقد بيمينه
- ١٢٦ التوسل بالأعمال الصالحة وبدعاء النبي ﷺ على وجهين
- ١٢٨ استفتاء أهل مصر للإمام ابن تيمية عن التوسل وجوابه لهم
- ١٣٠ استسقاء معارفة رضى الله عنه بيزيد بن الأسود
- ١٣١ استشفاع بعض الاتحادية بالله على الرسول ﷺ
- ١٣٢ إنكار الخوارج وغيرهم شفاعته الرسول ﷺ لأهل الكبائر
- ١٣٣ رواية بعض الجهال حديث (إذا سألت الله فاسأله بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم)
- ١٣٥ النهى عن اتخاذ القبور مساجد
- ١٣٦ عود إلى حديث الأعمى واتخاذ الناس له أصلاً في التوسل بالرسول ﷺ
- ١٣٨ حكم إهداء ثوب الأعمال إلى الرسول ﷺ وإلى الوالدين وغيرهما من الأموات
- ١٤٠ دعاء الرجل لآخيه بظهر الغيب أقرب إلى الإجابة من دعائه حال حضوره
- ١٤١ مع أن الأنبياء والشهداء أحياء في قبورهم لا يجوز دعاؤهم ولا طلب الحاجات منهم
- ١٤٢ الشفاعة نوعان جائزة وغير جائزة
- ١٤٤ الاستعانة بالمخلوقات وبيان حكم الرقى
- ١٤٥ التوسل بذوات المخلوقين ليس سبيلاً للإجابة
- ١٤٧ دعاء الله والعمل له سبب لحصول مقصود العبد
- ١٥٠ الحلف بالمخلوق والإقسام به والفرق بينهما وبيان الجائز منهما
- ١٥١ ينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة
- ١٥٣ مراتب طلب الحاجات من الميت ثلاثة
- ١٥٤ مذهب الأئمة الأربعة في دعاء الرجل لنفسه عند زيارة قبر الرسول ﷺ
- ١٥٥ إذا صلى عند زيارة قبر الرسول لا يقصد الصلاة إلى القبر
- ١٥٦ كره مالك أن يقول الرجل زرت قبر رسول الله ﷺ لأن هذا اللفظ لم يرد
- ١٥٨ فصل : إذا تبين ما أمر الله به ورشوه ونهى عنه في حق أمّرف الخلق فينبغي أن يسرى هذا الحكم على غيره من الأنبياء والملائكة والصالحين
- ١٦٠ الرقى والعزائم الأعجمية من جنس السحر
- ١٦١ الداخلون في الإسلام إذا لم يحققوا التوحيد فلم من الأحوال الشيطانية نصيب
- ١٦٢ دين الإسلام مبنى على أصلين
- ١٦٤ التوحيد القول والعمل ودليلهما من القرآن
- (سم القهرست)

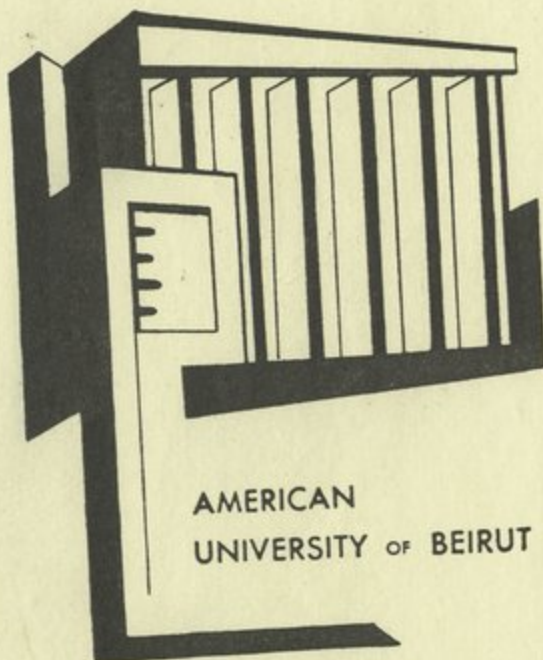


[illegible]

297.48:1132kA:c.1
الزيفى، طه محمد
قاعدة جليلية في التوسل والوسيلة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010927



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

